مختصر الكلام

فيما مر على مصر من عصور وحكام

أحمد زايد

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

مختصر الكلام
فيما مر على مصر
من عصور وحكام

تأليف

أحمد زايد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة
عماد سالم

المدير العام
أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : مختصر الكلام فيما مر على مصر من عصور و حكام

المؤلف : أحمد زايد

تصنيف الكتاب : دراسة

تصميم الغلاف : محمد عطية

إخراج : محمد إبراهيم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ١٥٤٤٠ / ٢٠١٧

الترقيم الدولى : 2 - 461 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ ـ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

مختصر الكلام فيما مر
على مصر من عصور وحكام

إهداء

الى روح كل شهيد بذل دماءه من أجل تحرير واستقلال هذا الوطن، والحفاظ على أرضه وترابه.

مقدمة

إن الحمد **لله**، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ با**لله** من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده **الله** فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الا **الله** وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

الحمد **لله** رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين معلمنا الأول الذي دعانا لطلب العلم ولو في الصين، وبعد،،

فقد كثر عدد الباحثين في حقل التاريخ، حتى ضاق بهم، وتكررت الموضوعات، وما يتفق عليه الجميع أن المادة التاريخية واحدة، لكن طريقة معالجتها هي التي تتفاوت حسب جودة المؤرِّخ.

بداية أحب أن أوضح أن هذا الكتاب ليس تحديدًا للكتابات الكثيرة التي ظهرت في هذا الموضوع، بل هو إضافة نظرة جديدة لها تتناسب مع فكر القرن الواحد والعشرين، القرن الذي قل فيه للأسف

من تستهواهم القراءة، أو السعي لامتلاك مجلد كثير الصفحات، صعب المصطلحات، وفي زمن أصبح الغالب فيه عدم معرفة بني وطني وأمتي الكثير عن تاريخ بلادنا الحبيبة مصر، متى أصبحت دولة مركزية بالمفهوم الحديث ؟ وما ترتيب العصور والحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ نشأتها إلى تاريخها الحديث ؟

وكثيرًا ما طلب مني توضيح هذه الأمور فقررت أن أقوم بهذا العمل البسيط، وأضعه بين أيادي الجميع لعلي أؤجر منه عند ربي سبحانه وتعالى.

وقد راعيت في هذا المؤلَّف ما يأتي:

أولًا: ألَّا استعمل قدر الإمكان المصطلحات اللغوية الصعبة، وأن استخدم لغًة بسيطًة سهلًة على الجميع.

ثانيًا: أن أجمع تاريخ مصر السياسي كله منذ نشأتها كدولة موحدة، إلى قيام الجمهورية الحديثة بشكل يَسْهُل على القارئ مايريده من معلومات واجراء المقارنات بين العصور المختلفة.

ثالثًا: تقسيم تاريخ مصر السياسي في هذا الكتاب إلى احدى عشر بابًا، يتناول كل باب منها عصرًا محددًا، وينقسم بدوره كل باب إلى فصل أو أكثر.

رابعًا: استخدمت في هذا العمل المصادر والمراجع المشهورة والمعروفة والموثوق بها، وهي كثيرة، لأني أؤمن في مجال البحث التاريخي بهذه السطور:

" ان المؤرِّخ محتاج إلى مأخذ متعددة، ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت، يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينئيان به عن المذلات والمغالط، لأن الأخبار إذا أعتمد فيها على مجرد النقل، ولم يحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا يقيس الغائب فيها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والحيدة عن جادة الصدق.»[1]

أسأل **الله** تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وألَّا يجعل حظنا من ديننا قولنا، وأن يحسن نياتنا وأعمالنا، إنه ولي ذلك ومولاه، وصلى **الله** على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد بن محمد بن عبد الفتاح زايد

القاهرة – مصر العربية

1438**هجرية** – 2017**ميلادية**

1– المقدمة – ابن خلدون ج(ص8) فما بعدها – طبعة باريس

تمهيد

يضم هذا المحتوى بين طياته احد عشر بابا بها مختصر تاريخ مصر السياسي، وكل باب يتناول عصر من عصور تاريخ مصر، والمعروف أن العصر هو فترة زمنية من فترات التاريخ، قد تكون طويلة أو قصيرة، إلَّا أنها تتميز عن غيرها بمميزات معينة.

وقد يضم كل باب فصلًا واحدًا أو أكثر، كل على حسب طول الفترة الزمنية وما تخللها من شخصيات وأحداث مهمة.

وستتناول أبواب الكتاب الموضوعات الأتية:

الباب الأول: مصر المكان والسكان

وهو يتناول مصر الأرض، جغرافيتها، وأهميتها الدينية والتاريخية، وأهم مايميزها عن غيرها من الأمصار، وكذلك سكانها، أصلهم، ولغتهم، وغيرها، كل ذلك من خلال فصلين، هما:

- الفصل الأول: مصر المكان

- الفصل الثاني: مصر السكان

الباب الثاني: مصر الفرعونية

يتناول هذا الباب تاريخ مصر الفرعوني والذي قسمناه إلى ثلاثة فصول وهي:

- الفصل الأول: عصر الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام)

- الفصل الثاني: عصر الدولة الوسطى (عصر الرخاء الاقتصادي)

- الفصل الثالث: عصر الدولة الحديثة (عصر المجد الحربي)

الباب الثالث: مصر والإسكندر

يتناول هذا الباب تاريخ مصر في عصر الإسكندر المقدوني من خلال فصلًا واحدًا وهو:

- الفصل الأول: الإسكندر في مصر

الباب الرابع: مصر في عصر البطالمة

يتناول تاريخ مصر في عصر البطالمة من خلال فصلين هما:

- الفصل الأول: عصر القوة

- الفصل الثاني: عصر الضعف والانهيار

الباب الخامس: مصر تحت حكم الرومان

قسمنا هذه الفترة المهمة من تاريخ مصر إلى فترتين، نتناولهما في فصلين، هما:

- **الفصل الأول: مصر والرومان**
- **الفصل الثاني: مصر في العصر البيزنطي**

الباب السادس: مصر والفتح الإسلامي

نوضح في هذا الباب تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، وكذلك تاريخ مصر في عصر الولاة المعينين من قبل الخلافة الراشدة من خلال **ثلاثة فصول، هي:**

- **الفصل الأول: ظهور الإسلام وفتح مصر**
- **الفصل الثاني: بداية عصر الولاة في مصر**
- **الفصل الثالث: مصر في عصر الفتنة الكبرى**

الباب السابع: مصر في عصر الدولة الأموية

في هذا الباب فصلين، هما:

- **الفصل الأول: نبذة عن تاريخ الدولة الأموية**
- **الفصل الثاني: أشهر ولاة مصر في العصر الأموي**

الباب الثامن: مصر في العصر العباسي الأول

- الفصل الأول: نبذة عن تاريخ الدولة العباسية
- الفصل الثاني: مصر في العصر العباسي الأول

الباب التاسع: مصر في العصر العباسي الثاني (الدول المستقلة)

هذا الباب هو أكثر الأبواب فصولًا، لما تضمنته هذه الفترة من تعاقب دول وشخصيات كان لها دورا مهما في تاريخ مصر، بل والعالم بأجمعه، ونتناول هذا الباب في ستة فصول، وهي:

- الفصل الأول: نبذة عن العصر العباسي الثاني وظهور الدول المستقلة
- الفصل الثاني: الدولة الطولونية
- الفصل الثالث: الدولة الإخشيدية
- الفصل الرابع: الدولة الفاطمية في مصر
- الفصل الخامس: الدولة الأيوبية والخطر الصليبي
- الفصل السادس: دولة المماليك والخطر المغولي

الباب العاشر: مصر تحت السيادة العثمانية

يتناول هذا الباب نشأة الدولة العثمانية، وأحوال مصر في العصر العثماني من خلال فصلين، هما:

- الفصل الأول: نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية

- الفصل الثاني: أحوال مصر تحت السيادة العثمانية ومجئ الحملة الفرنسية

الباب الحادي عشر: مصر في عصر أسرة محمد علي

على الرغم من تبعية مصر في عصر محمد علي وأسرته للدولة العثمانية، إلَّا أن هذه الفترة قد تمتعت فيها مصر ببعض الاستقلال عن دولة أل عثمان، ونناقش هذا من خلال فصلين، هما:

- الفصل الأول: عصر محمد علي

- الفصل الثاني: عصر خلفاء محمد علي

كان ذلك تمهيدا لأبواب الكتاب وفصوله، حتى يسهل على القارئ التمييز بينها، والله المستعان.

الباب الأول

مصر المكان والسكان

الفصل الأول

مصر المكان

مصر،، هذا الاسم الغالي على مسامعنا، والذي يعني الكثير لمن يحمل جنسيتها، وكذلك لمن لم ينل هذا الشرف، لما هذا الاسم ؟

هل تعرف لماذا سميت مصر بهذا الاسم ؟

ذهب المؤرِّخون في هذا الأمر مذاهب عدة، وتعددت أرائهم، بحثنا في جميعها ورأينا أن أدقها، والأكثر اقناعًا لنا رأيان، لا نرجح أحدهما على الآخر، وإنما نرى أن الصواب في أحدهما إن شاء اللّه، وهما:

- الرأي الأول يرى أن مصر سميت بهذا الاسم نسبة إلى (مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام)، حيث أن بيصر بن حام هو أول من سكن مصر بعد الطوفان الذي حدث زمن نبي الله نوح عليه السلام، وكان مصر أكبر أبنائه، وهو الذي ساق أباه وجميع أخوته إلى مصر فنزلوا بها، فسميت مصر على اسمه، وقد ذكر أن

نوح عليه السلام دعا له قبل ذلك قائلا " اللهم أنه أجاب دعوتي، فبارك فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض المباركة (الواضح أن نوح عليه السلام كان يقصد أرض مصر)، التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا، وأجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم، وقوهم عليها "[1]

- أما الرأي الثاني الذي يراه البعض، فهو أن أصل كلمة مصر مشتق من كلمة أرامية قديمة هي (مزر)، ومعناها الحد أو الحدود، وذلك لأنه لما كثرت غارات الغزاة على مصر من ناحية حدودها الغربية، أقام الفراعنة القدماء حصونا وحواجز لحماية الحدود سميت مزر، ثم أطلقت الكلمة على مصر كلها.

وفي مطلع تاريخ الفراعنة كانت تسمى (كيمي) أو (شيمي) أو(خيمي) بمعنى الأرض الحمراء.[2]

على أي حال فمصر عرفت بهذا الاسم منذ اقدم العصور، وهي من أقدم البقاع التي عمرها الإنسان على وجه البسيطة، وقامت على أرضها أعرق وأقدم الحضارات التي عرفها البشر.

1- فتوح مصر وأخبارها – صـ7 أبي القاسم بن عبدالله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري

2- مصر الإسلامية – أ.د. عصام الدين الفقي –ص12

ونرى أن هناك عوامل عديدة ميزت مصر عن باقي بقاع الأرض، أهمها نهر النيل، هذا النهر العظيم الذي وهبه **الله** سبحانه وتعالى لمصر، فكان سببا رئيسا في قيام الحضارة على أرضها، فالمعروف أن الإنسان قديما في عصور ماقبل التاريخ كان يعيش حياة غير مستقرة مليئة بالتنقل والترحال بحثا عن الغذاء، وكانت حياته تلك فوق الهضاب سكن فيها الكهوف، فلما حل الجفاف اضطر الإنسان للنزول من فوق الهضاب للبحث عن الكلأ والماء، واذ به يجد نفسه أمام نهر النيل، الذي علمه الزراعة ومن ثم الاستقرار على ضفافه، وبناء المساكن والبيوت والقرى والمدن، فقامت تلك الحضارة المبهرة.

نرى كذلك أن موقع مصر المميز قد منحها فرصة عظيمة لبناء الحضارة، فمصر تتوسط قارات العالم القديم الثلاث (أسيا – أفريقيا – أوروبا)، وتقع مصر تحديدًا في الركن الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، كما أن لمصر امتداد أسيوي متمثل في حوالي 6،5% من مساحتها، هي كل مساحة شبه جزيرة سيناء والتي تقع بأكملها داخل قارة أسيا، فيمكن أن نطلق على مصر دولة أفروأسيوية.

ونستطيع أن نقول أن معظم حدود مصر هي حدود طبيعية متمثلة في سواحل مصر الممتدة لحوالي 3000كم، وهي سواحل بحرين من أهم بحار العالم هما الأحمر والمتوسط، وقد زاد من أهمية موقع مصر الاستراتيجي والاقتصادي ربط البحرين ببعضهما من خلال ممر ملاحي هو الأهم في العالم وهو ما عرف بقناة السويس وما لَحِقَ بها من أعمال تنمية وتطوير في العصر الحديث.

كما تتنوع أشكال السطح في مصر (التضاريس) من جبال وتلال وهضاب إلى أودية وسهول ومنخفضات وغيرها والتي تثري التنوع الجيولوجي لسطح مصر.

ولا يجب أن نغفل عن العامل البشري الذي ساعد على قيام هذه الحضارة، فلولا الإنسان المصري الشغوف بالعمل والتميز والإبداع، ما اكتمل مثلث عوامل قيام الحضارة في مصر (النهر – الموقع – الإنسان).

فيجب علينا أن نضيف إلى مقولة المؤرِّخ القديم هيرودوت "مصر هبة النيل" كلمة "والمصريين"، فلولاهم ما قام النيل ببناء تلك الحضارة.

أما عن الأهمية الدينية لمصر، فتحتاج إلى مجلدات لجمع مادتها، إلّا أننا نختصرها مراعين في ذلك التسلسل الزمني للأحداث كما يلي:

قام نبي **الله** وخليله إبراهيم بزيارة مصر، وتزوج منها السيدة هاجر أم إسماعيل الذبيح الذي فداه **الله** بكبش من السماء، وهاجر هي أم العرب المستعربة أولاد إسماعيل، والجدة الكبيرة للنبي المصطفى المختار محمد بن عبد**الله** ﷺ.

كما نزل النبي يوسف عليه السلام مصر وأصبح عزيزها (وزيرها) وقد وصف **الله** قصة يوسف عليه السلام في مصر بأنها أحسن القصص، ثم دعا إليها أبيه يعقوب (إسرائيل) وهو نبي ابن أنبياء، فيوسف هو ابن يعقوب بن أسحاق بن إبراهيم عليهم السلام أجمعين.

وولد موسى وأخيه هارون بمصر، وكانت دعوتهما عليهما السلام في مصر، وكلم **الله** سبحانه وتعالى نبيه موسى في مصر، كما أن الخضر الذي صاحبه موسى كان في مصر أيضا.

وفي ظل الاضطهاد والتهديد الذي تعرض إليه المسيح عليه السلام في فلسطين من اليهود والرومان، قَدِمَ المسيح وأمه القديسة مريم إلى مصر فيما عرف برحلة العائلة المقدسة.

أما عن النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فقد أوصى بمصر وأهلها، وتزوج منها أم المؤمنين السيدة مارية القبطية أم ولده ابراهيم.

أما عن مواضع ذكر مصر في القرآن الكريم فهي متعددة، منها:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)﴾

يوسف(٢١)

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

يوسف(٩٩)

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)﴾

الزخرف(٥١)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)﴾

البقرة (٦١)

على أي حال، فقد شرفت مصر بذكرها في القرآن الكريم، أما النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أوصى خيرًا بمصر وأهلها في حديثه لأصحابه:

" أنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحما"

-رواه مسلم –

وفي رواية أخرى:

"اذا فتحتم مصر، فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحما"

-رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني-

وقد علَّل العلماء التوصية في هاتين الروايتين بالرحم والذمة، بكون هاجر أم إسماعيل قبطية (مصرية)، وأن مارية زوجة النبيﷺ قبطية.

والله أعلم

الفصل الثانى

مصر السكان

بعد أن تعرفنا على مصر من حيث المكان، أصبح واجبًا علينا أن نتعرف على سكان مصر، هؤلاء البشر الذين ميزهم **الله** تبارك وتعالى وخصَّهم بالعديد من الخصائص.

مما خصَّ به **الله** أهل مصر، أن جعل بينهم الأنبياء، وربطهم بعلاقات الدم والنسب والمصاهرة، فَوُلِدَ بها من الأنبياء: موسى وهارون ويوشع ودانيال ولقمان، وتزوج إبراهيم الخليل من هاجر المصرية أم إسماعيل، كما تزوج نبي **الله** يوسف عليه السلام من ابنة صاحب عين شمس[1]، وتزوج النبي الهادي المختار عليه الصلاة والسلام من أم المؤمنين السيدة مارية أم ولده ابراهيم، سلام **الله** عليهم أجمعين.

1– مصر الإسلامية، ص:11.

خص الله أهل مصر كذلك بأن وهبهم منذ نزولهم بهذه الأرض الخير الوفير، ولم نجد في ذلك أبلغ من وصف نبي الله يوسف عليه السلام لمصر بأنها خزائن الأرض، مما يدل على وفرة الخير والرزق والموارد بها.

وكثيرًا ما يدور هذا السؤال في خواطر الناس، وتتضارب فيه الإجابات والأراء، ونجد أحيانا تعصب كل باحث لرأيه ويقلل من احتمال صواب الأراء الآخرى، فحاولت أن أصل إلى الرأي الأرجح، من خلال تجميع كل الأراء وبحثها بحثًا يعتمد على العقل مستعينا بما تركه لنا السلف من أثر.

من هم أهل مصر، وما أصولهم ؟

نتناول ذلك من خلال عدة نقاط، لعلنا نصل سويًا إلى اجابة واضحة وكافية:

1. من المسلم به أن آدم عليه السلام هو أول البشر، ومن بعده ساح أولاده وأحفاده في الأرض، ومرت السنوات والعقود، وما لبث أن انتشر الشرك بين الناس، فبعث الله فيهم الأنبياء والرسل ليذكرهم بالله الواحد، حتى جاء الطوفان زمن نوح عليه السلام، ولم ينج من هذا الطوفان أحد إلَّا من حمله نوح معه على الفلك، وبعد أن جف الماء، ونزل نوح ومن معه عن

السفينة، أخذ أولاده وأحفاده من بعده على عاتقهم مسئولية أن يعمروا الأرض من جديد، ومن هنا جاء لقب نوح بأبي البشر الثاني.

ونزل (مصر بن بيصر بن حام بن نوح) مصر، وكان أول من سكنها بعد الطوفان، وعلى ذلك فأهل مصر هم حاميين نسبة إلى حام بن نوح.

2. **قسَّم علماء التاريخ العرب إلى ثلاثة أقسام:**

أ-العرب البائدة: وهي القبائل العربية التي أبادها **الله** سبحانه وتعالى، ولم يعد لهم نسل أو ذرية، مثل عاد وثمود وغيرهما.

ب-العرب العاربة: وهي القبائل العربية اليمنية التي لم تختلط بغيرها من الأجناس، ومنهم العرب القحطانية.

ج-العرب المستعربة: فكانت هناك حضارة عظيمة في بلاد اليمن قامت على الزراعة حتى انهار سد مأرب، فهاجرت القبائل العربية من اليمن متجهة شمالا، وانتشروا في شبه الجزيرة العربية، ومنهم من واصل رحلته حتى وصل مصر، وبالأخص شبه جزيرة سيناء.

كما نزلت بعض العرب بمكة (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)، ولم يكن بها إلَّا

السيدة هاجر وولدها إسماعيل وكانا على ماء زمزم، فاستأذنتهما تلك القبيلة أن ينزلوا معهما على البئر، فوافقا، وتزوج منهم إسماعيل وخرجت من ذريته القبائل العربية المستعربة، وبما أن هاجر مصرية، فصار أهل مصر أخوال العرب المستعربة أولاد إسماعيل، وهذا القسم من العرب نال شرف أن كان منه خير الخلق محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني من أحفاد إسماعيل، فكثير من المصريين عرب وبقيتهم على أقل تقدير هم أخوال العرب.

3. كان لإبراهيم عليه السلام زوجتان، سارة أم اسحاق، وهاجر أم إسماعيل، أما عن نبي الله اسحاق عليه السلام فقد ولد له يعقوب (إسرائيل)، ويعقوب والد النبي يوسف الصديق، وقد دخل بنو إسرائيل مصر، وكان للمصريين علاقات نسب ومصاهرة مع أنبياء بني إسرائيل، وعلى ذلك، فقد اختلط أهل مصر مع الجنس السامي أولاد سام ابن نوح.

وجدير بالذكر أن علاقة الأخوة بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام هي السبب في ترديد اليهود عبارة "نحن أولاد عمومة" لنا كعرب.

4. لا نستطيع أن نغفل عن الامتداد الأفريقي لمصر والذي كان سببًا في وجود أصحاب البشرة السمراء من المصريين والذين

يرجعون في معظمهم إلى القبائل النوبية العريقة المفحمة بالوطنية والعزة والكرامة والتي تسكن في أقصى جنوب مصر.

5. لفظ الأقباط هو لفظ يستخدم الآن للمصريين المسيحيين، وهو توظيف خاطئ للفظ، فكلمة قبطي هو مصطلح يوناني تم تعريبه، كان اليونان يطلقونه على المصريين عموما قبل ظهور المسيحية بمئات السنين.

فاللفظ مشتق من كلمة (ايجيبتوس)، والذي اشتق منه أيضًا اسم مصر في الكثير من اللغات الغربية مثل: Egypt في اللغة الإنجليزية. فمصطلح قبطي يطلق على كل المصريين باختلاف أعراقهم أو أديانهم.

6. توجد نسبة قليلة من سكان مصر تنتمي إلى القبائل الأمازيغية التي تسكن شمال غرب أفريقيا، ومعظم أهل مصر الذين من أصل أمازيغي الآن يسكنون الصحراء الغربية في المنخفضات والواحات القريبة من الحدود المصرية الليبية.

7. هناك أعداد ليست بالكثيرة أيضًا من المصريين ترجع أصولهم إلى بعض الجنسيات الأوروبية مثل التركية والجورجية واليونانية والأرمينية وغيرها، ولكل منها أسبابه في اختلاط أهل مصر به.

مما سبق نستنتج أن أفضل وصف لأهل مصر الأن هو أن أهل مصر (مصريون)، هم الذين عاشوا ويعيشون على أرضها، معتزين بانتمائهم إلى أمتهم الإسلامية، فخورين بكونهم قلب الأمة العربية، مقدرين عمقهم الأفريقي الذي مدهم بمياه النيل منذ آلاف السنين، مرحبين ومحتوين لأي عرق أو جنس من البشر قّدِمَ إليهم في أي وقت أو عصر، وعاش معهم في سلام.

• المصريون والحضارة:

كثيرًا مايردد الناس مصطلح الحضارة، دون أن يدرك بعضنا مفهومها، وقد تعددت المفاهيم إلّا أن مؤداها واحد، ويمكن أن نعرف الحضارة بأنها كل ما أنتجه البشر في كل مجالات الحياة سواء كان هذا المنتج ماديًا ملموسًا تراه العين كالعمارة مثلا، أو كان منتجًا ثقافيا يحسه الإنسان كالأدب والشعر.

وقد اجتمع جُلَّ علماء التاريخ على أن أقدم الحضارات هي الحضارات التي قامت على ضفاف الأنهار، حضارة بلاد الرافدين في العراق، وحضارة وادي النيل في مصر.

وقد مرت الحضارة الإنسانية بمراحل عديدة لأجل وصولها إلى مراحل متقدمة، وقد عكف العلماء على وضع وسائل لاقتفاء

ودراسة وتتبع تطور استخدام الإنسان للمواد المتاحة لديه من معطيات البيئة التي يعيش فيها، ولذا نجدهم يقسمون الحِقَبْ إلى عصور حجرية، وعصور استخدام المعادن[1]، وكل منهما انقسم بدوره إلى عدة عصورحسب قدرات الإنسان في استغلال وتطويع هذا المورد.

أما بالنسبة لتقسيم الحِقَبِ الزمنية، فقد اجتمع علماء التاريخ على أن يتم تقسيمها إلى قسمين هما:

1. عصور ماقبل التاريخ: وهي الفترة التي بدأت مع وجود الإنسان على ظهر الأرض، وحتى منتصف الألف الرابع ق.م.، وكانت حياة الإنسان في هذه الفترة حياة بدائية يعتمد فيها على الجمع والالتقاط ثم عرف الصيد واكتشف النار، ولم تكن حياة الإنسان أبدًا مستقرة في هذه الفترة، ولم يعرف حتى بناء المنازل، بل كان يسكن الكهوف. وهناك علماء مختصون بدراسة هذه العصور أغلبهم علماء أنثروبولوجيا وأثار عنهم علماء تاريخ، فإنسان هذا العصر لم يكن قد عرف الكتابة وتدوين الأحداث.
2. العصور التاريخية: بدأت مع معرفة الإنسان الكتابة حوالي عام 3350 ق.م. وقام بتدوين أحداثه ومايدور حوله، وقد بدأت

1– مقتطفات من تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ص–3 د.عودة عبد الواحد.

الكتابة بأشكال وخطوط ورسومات ثم تطورت إلى أحرف مع الوقت، ومع معرفة الإنسان الكتابة وتدوين أحداثه، اعتبرت هذه الكتابات المصدر الأول لدراسة التاريخ.

الباب الثانى

مصر الفرعونية

الفصل الأول

عصر الدولة القديمة (بناة الأهرام)

يبدو أن كلمة فرعون هي تطور لكلمة (برعو)، والتي تعني القصر أو البيت العظيم الذي كان يسكنه الحاكم، ثم امتد مدلول الكلمة ليشمل صاحب هذا القصر، وقد شاع هذا اللقب منذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكان للملك ألقاب أخرى إلى جوار لقب فرعون، منها (حوري) نسبة إلى الإله حورس، واللقب النبتي، وغيرها[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف أصبحت مصر دولة مركزية يحكمها الفرعون ؟

عاش الإنسان البدائي في مصر فوق الهضاب معتمدًا على ماتوفره له الطبيعة من غذاء وكساء دون أن يبتكر أو يصنع، حتى حل الجفاف الشديد فوق الهضاب فاضطر الإنسان مثله كسائر

1- مقتطفات من تاريخ الشرق الأدنى القديم - د. عودة عبد الواحد -ص9

المخلوقات التي سكنت الهضاب بجانبه، إلى النزول من فوق الهضاب بحثا عن الماء والغذاء.

وجد المصري القديم نفسه أمام نهر النيل، وما لبث أن وجده حتى عرف الاستقرار على ضفافه وبنى مسكنه المتواضع من الطوب اللبن (طمي مخلوط بالقش)، وكما علمته الزراعة الاستقرار فقد علمته أيضًا التعاون، فشرعت الأسر والبيوت في الاتحاد مع بعضها مكونة قرى، ثم اتحدت القرى مع بعضها مكونة المدن، ثم نشأت الأقاليم من اتحاد المدن والقرى الكبيرة.

استطاع أحد حكام الأقاليم في الوجه البحري أن يوحد أقاليم الشمال تحت سيطرته وكوَّن مملكة الشمال وعاصمتها (بوتو) واتخذت من نبات البردي شعارا لها، وارتدى ملكها تاج لونه أحمر.

كما حدث في الوجه البحري، حدث في الوجي القبلي بالجنوب، فقد استطا ع أحد حكام الأقاليم في الصعيد أن يوحد أقاليم الجنوب تحت حكمه مكونًا مملكة الجنوب، وعاصمتها (نخب)، وكان شعارها زهرة اللوتس، وارتدى ملكها التاج الأبيض.

مرت السنوات حتى كانت الوحدة الأولى لمصر عام 4242ق.م.، تلك الوحدة التي يغفلها الكثير من الباحثين، إلَّا أنها كانت بالفعل

هي أول وحدة تجمع كل مصر تحت حكم حكومة مركزية واحدة، وقد اتخذت تلك الحكومة الموحدة الأولى في تاريخ مصر من مدينة (أون) هليوبليس، ومكانها الآن عين شمس عاصمة لها، إلَّا أن هذه الوحدة لم تدم طويلا وسرعان ما انهارت وانقسمت مصر مرة جديدة إلى مملكتين، مملكة الشمال ومملكة الجنوب.

استطاع أحد أمراء الجنوب يعرف (مينا)، من مدينة طيبة (الأقصر) توحيد مصرمرة ثانية عام 3200ق.م.، تلك الوحدة التي حفظت حدود مصر إلى حد ما، منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا.

ومنذ أن وحد الملك مينا البلاد عام 3200ق.م. يمكننا أن نقول أن عصر الأسر الفرعونية الحاكمة قد بدأ، وقد قسم المؤرِّخ الشهير مانيتون الذي عاش زمن البطالمة هذا العصر إلى ثلاثين أسرة حاكمة، ثم أزاد ما لحقه من علماء إلى تقسيم مانيتون تقسيما جديدا، يقسم عصر الفراعنة إلى ثلاثة عصور، لكل عصر منها مايميزه عن غيره، وذلك حتى يسهل على الناس تتبع أخبارها.

يسبق تلك العصور عصر أقدم عرف بالعصر الأركي، وهو عصر بداية الأسرات، ويضم الأسرتين الأولى والثانية.

• **الأسرة الأولى:**

ارتبط تأسيس الأسرة الأولى بثلاثة أسماء هي (نعرمر – عجا – منى)، يحتمل أنها لملك واحد.[1]

هذا الملك الذي عرف باسم مينا، والذي استطاع توحيد القطرين عام 3200ق.م.، ودوَّن قصة نضاله من أجل توحيد مصر على لوحته الشهيرة التي عرفت باسمه، وهي لوحة حجرية مكونة من وجهين موجودة بالمتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة، ثم تتابع بعده عدة ملوك، مثل: (جروبواجي– دن – عنجاب – سمرخت – قاي عا)

• **الأسرة الثانية:**

كان عدد ملوكها ثمانية، هم: (حتب سخموي – نبي رع – ني نثر – بر أبسن – ونج – سنج– خع سخم – خع سخموي)

• **عصر الدولة القديمة (بناة الأهرام):**

عُرِفَ عصر الدولة القديمة الفرعونية باسم عصر بناة الأهرام، والسبب في ذلك أن ملوك هذا العصر اهتموا ببناء الأهرامات الضخمة، ولم تكن الأهرام حكرًا على ملوك هذا العصر، إلَّا أن ملوك

1– المرجع السابق صـ8.

الدولة القديمة كانت أهرامهم الأكبر والأفخم والأروع والأشهر والأدق تصميما والأكثر عددا بين أهرامات الفراعنة.

يمتد عصر الدولة القديمة في الأسرات من الثالثة إلى السادسة، وكان أشهر ملوكها هم:

1- **الأسرة الثالثة:**

بدأ عصر الأسرة الثالثة بالملك زوسر، ويبدو أن اسمه الحقيقي (نثر رخت)، وهو ابن خع سخموي أخر ملوك الأسرة الثانية من الملكة ماعت حاب.

استطاع زوسر مد حدود البلاد جنوبا، وسيطر على مملكة النوبة، وكان له الكثير من الأعمال العسكرية المهمة، إلَّا أن السبب الرئيس في شهرته هو أنه صاحب أول هرم في التاريخ والذي يعد كذلك أقدم قبر حجري عرفته البشرية، ويرجع الفضل في بناء قبر الملك زوسر بشكله الهرمي إلى وزيره (ايموحتب) والذي كان عالمًا في مجالات عديدة.

أما عن تعريف الهرم الفرعوني، فهو: بناء ضخم من الحجر يتكون من عدة حجرات، يوضع في إحدى هذه الحجرات تابوت الملك المُتوفي، أي هو عبارة عن مقبرة يُدفن بها مومياء الملك بعد

تحنيطها ومعها كل متعلقاته وأغراضه التي سيحتاجها في العالم الآخر، فمن الجلي أن المصري القديم قد اعتقد في البعث والخلود، والثواب والعقاب، مما كان لذلك أبلغ الأثر في حياته وعلومه وحضارته.

وهرم زوسر هو الهرم المدرج المشهور في سقارة (قرب الجيزة)، وهو يتكون من ست مصاطب فوق بعضها، لذا عرف بالمدرج.

من أهم ما يميز عصر الملك زوسر أيضًا أن مدرسة أون (عين شمس) قد اهتدت في عصره إلى تقويم جمع بين التقويم النجمي والشمسي، ونفذوه عام 2773ق.م.، واحتسبوا السنة 365يوم، وقسَّموا السنة إلى 12 شهر، كل منها 30 يوم، ثم خمسة أيام نسئ احتفلوا فيها بأعياد الأرباب (أوزير – ايسة – ست – نبتحت – حور)[1].

تعاقب بعد زوسر على عرش الأسرة الثالثة عدة ملوك، وانتهت بالملك حوني الذي حكم 24سنة، وشاد له مهندسوه هرمًا ضخما في ميدوم، وجعلوه على شكل هرم مدرج، إلَّا أنه توفي قبل أن يشهد الانتهاء منه، فأتمه ابنه سنفرو من بعده، والذي اعتبر أول ملوك الأسرة الرابعة.

1– المرجع السابق – ص14

2- الأسرة الرابعة (2680ق.م. – 2560ق.م.):

يعتبر ملوك هذه الأسرة من أشهر ملوك مصر عبر عصورها التاريخية كاملة، والفضل في ذلك يرجع إلى أهرامهم الضخمة التي شيدوها في الجيزة، والتي لاتزال شامخة صلبة ناظرة نظرة تحدي قوية إلى كل علماء الهندسة والعمارة في كل العالم، حتى أن الهرم الأكبر الذي يرجع بنائه إلى الملك خوفو اعتبر أحد عجائب العالم القديم.

أما عن ملوك الأسرة الرابعة وأهم أعمالهم، فيمكن ايجازه فيما يلي:

أ–سنفرو: ذكرنا فيما سبق أنه ابن الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة، ويعتبر سنفرو هو مؤسس الأسرة الرابعة، وقد تطور شكل الهرم في عصره إلى الشكل الهرمي المألوف لنا، وقد شيد له مهندسوه هرمين كاملين في دهشور، أحدهما يبدو منبعجًا أو منكسرًا، وربما كان ذلك السبب في لجوؤهم لبناء الهرم الثاني. أدرك الملك سنفرو الأهمية الاقتصادية وكذلك الاستراتيجية التي تتمتع بها سيناء، لذا عمد إلى تأمينها دائما، وهو أول من اهتم بسيناء هذا الاهتمام من حكام مصر، واستخرج منها النحاس والفيروز.

ب- خوفو: هو خنوم خوفوي والمعروف باسم خوفو، وهو ابن الملك سنفرو، ونظن أن مجهودات أبيه كانت السبب في توفر الإمكانيات المادية والفنية والمعمارية في عصر الملك خوفو، رغم قلة ما تركه لنا من آثار حيث لم نعثر له سوى على تمثال صغير طوله 9سم، وهرمه الموجود في الجيزة والذي اعتبر من عجائب العالم القديم.

حكم خوفو 23سنة و كان يرتب ليخلفه ابنه كاوعب، إلَّا أنه تُوفي في حياة أبيه.

ج- جد فرع: ابن الملك خوفو، وقد تزوج من أرملة أخيه كاوعب، وقد بنى هرمه في أبو رواش، ولم يطل حكمه أكثر من ثماني سنوات.[1]

د- خفرع: ابن الملك خوفو وأخو جد فرع، تولى العرش بعد وفاة أخيه، ورغم أن له هرمًا كبيرًا وهو الهرم الأوسط بين أهرامات الجيزة الثلاث المشهورة، إلَّا أن تمثال أبو الهول الذي نحت في عهده قد طغت شهرته على شهرة الهرم نفسه، وهو تمثال نُحت على صخرة طبيعية من صخور الهضبة بارتفاع 22متر، وهو على هيئة أسد رابض، رأسه رأس إنسان، ويبدو أنها منحوتة على هيئة الملك خفرع نفسه.

1- المرجع السابق - ص19

هـ- منكاورع: ابن الملك خفرع، تولى الحكم بعد وفاة أبيه، وهو صاحب الهرم الأصغر بين أهرامات الجيزة الثلاث الشهيرة، ولم تملك الدولة في عهده نفس الإمكانيات كما كانت في عهد أبيه وجده، ولكن أهم ما ميز عصر الملك منكاورع هو الحرية الدينية التي اشتهر بها عصره، فلم يضيق على الناس لعبادة إله محدد.

و- شبسسكاف: تولى العرش بعد وفاة أبيه منكاورع، والغريب أنه لم يقم ببناء هرم مثل أسلافه، إنما بنى مقبرته على هيئة مصطبة ضخمة جنوبي سقارة.

ز- خننكاوس: يبدو أنها كانت أخت أو زوجة لشبسسكاف[1]، وآل إليها حكم البلاد بعد وفاته، ثم أصبحت زوجة لأوسر كاف رأس الأسرة الخامسة.

3- **الأسرة الخامسة:**

جمعت هذه الأسرة فرعي الأسرة الرابعة، فرع خفرع وقد مثلته خننكاوس، وفرع جد فرع الممثل في أوسر كاف، إلَّا أن هذه الأسرة قد أرجعت نسبها إلى إله الشمس رع، وكان الملوك الفراعنة دائما يدعون انتسابهم للألهة لتأكيد حقهم في الحكم.

1- المرجع السابق - ص22

وكان أشهر ملوك الأسرة الخامسة (أوسر كاف – ساحو رع – اسس) وترك ملوك هذه الأسرة أغلب آثارهم في منطقة أبي صير بالجيزة، وأشهرها معابد الشمس المكشوفة، ويبدو أنهم تركوها مكشوفة، لأن طقوس عبادة رع إله الشمس كانت تقام نهارًا أثناء سطوع الشمس.

4- الأسرة السادسة:

جاء الملك تتي على رأس الأسرة السادسة، واشتهر بعده ثلاثة ملوك هم (بيبي الأول – مرنوع – بيبي الثاني)، وقد اشتهر هذا العصر بالبيروقراطية والتي وفرت لكبار الموظفين والكهنة مكانة معنوية ومادية كبيرة، أدت بطبيعة الحال إلى انهيار سلطة الحكومة المركزية في الدولة في نهاية عصر الأسرة السادسة.

بانهيار سلطة الحكومة المركزية، فقد الملوك السيطرة الكاملة على البلاد، لاسيما في عصر بيبي الثاني، الذي تولى الحكم طفلًا، وقد شَهِدَ عصره ثورة اجتماعية واسعة أدت إلى انهيار حكم أسرته، وقد حكم بيبي الثاني مصر لمدة تقترب من 90 عام، وهي أطول مدة حكمها فرعون.

الفصل الثانى

عصر الدولة الوسطى (الرخاء الإقتصادى)

بانهيار الأسرة السادسة الحاكمة في مصر الفرعونية، دخلت البلاد في فوضى عارمة، ظلت هذه الفوضى ممتدة من الأسرة السابعة حتى العاشرة في فترة زمنية لم يرد إلينا منها الكافي من المصادر التاريخية، إلَّا أن علماء التاريخ قد أطلقوا على هذه الفترة اسم (عصر الانتقال الأول أو الاضمحلال، أو اللامركزية).

ظهرت أسرة من اهناسيا (بني سويف) استطاعت أن تسيطر إلى حد ما على البلاد، إلَّا أنها سرعان ماسقطت هي الآخرى.

جاءت طيبة مرة جديدة لتلعب دورها في إعادة توحيد البلاد، وبواسطة أحد أمرائها العظام وهو منتوحتب الثاني، والذي استطاع إعادة وحدة البلاد ونشر الأمن والأمان والاستقرار، واتخذ من طيبة مدينته عاصمة للبلاد.

وبإعادة توحيد البلاد والقضاء على الفوضى بيد منتوحتب الثاني، بدأ عصر الدولة الوسطى، العصر الذي عرف باسم عصر الرخاء الاقتصادي، وترجع هذه التسمية إلى أن ملوك هذا العصر قد اهتموا بإقامة المشروعات الاقتصادية في كل المجالات والتي عادت على البلاد والعباد بالخير والرخاء.

ضم عصر الدولة الوسطى أسرتين، هما: الحادية عشر والثانية عشر.

1- **الأسرة الحادية عشر:**

يعد الملك منتوحتب الثاني هو رأس هذه الأسرة، وقد تعاقب على حكم مصر من ملوك هذه الأسرة العديد من الملوك الذين حملوا اسم منتوحتب، ونقلت في عهدهم عاصمة مصر إلى طيبة، وأهم ما قام به الملك منتوحتب الثاني هو أنه حد من سلطات حكام الأقاليم وأخضعهم لأمره، مما أدى إلى استعادة المركزية للبلاد مرة أخرى.

2- **الأسرة الثانية عشر:**

يعتبر عصرها من أزهى عصور مصر الفرعونية، وتعاقب على حكمها العديد من الملوك المشهورين بقوتهم ومشروعاتهم الاقتصادية العملاقة، وقد بدأ عصر هذه الأسرة بالملك أمنمحات الأول، ثم خلفه ابنه سنوسرت الأول.

إلَّا أن أشهر ملوك هذه الأسرة على الاطلاق، هما:

أ- سنوسرت الثالث: أحد أعظم حكام مصر في تاريخها، وشهد عصره مشروعًا ملاحيًا عملاقًا، وهو ما عرف بقناة (سيزوستريس)، تلك القناة التي حملت نفس فكرة قناة السويس الحالية، إلَّا أن الفرق بينهما هو أن قناة (سيزوستريس) لم تربط بشكل مباشر بين البحرين الأحمر والمتوسط مثلما الحال في قناة السويس، وإنما ربطت بينهما من خلال ربط البحر الأحمر بنهر النيل بواسطة قناة (سيزوستريس)، ونهر النيل بدوره متصل بمصبه في الشمال وهو البحر المتوسط.

كان لهذه القناة الجديدة أثر بالغ الأهمية في زيادة النشاط التجاري بين مصر وجيرانها وخاصة بلاد فينيقيا (سوريا الحالية).

عُرِفَ عن الملك سنوسرت براعته في الحرب وشجاعته، واستطاع أن يفرض سيطرته على كل البلاد، ويؤمن حدودها خاصة الحدود الجنوبية.

ب- أمنمحات الثالث: أحد أشهر ملوك الأسرة الثانية عشر، وكان جل اهتمامه مُنصَبْ على المشروعات الاقتصادية خاصة تلك

التي تخدم الري والزراعة، ومن أبرز مشروعاته سد اللاهون الذي بناه في منطقة الفيوم لغرض حماية الفيوم من مياه الفيضان وزيادة الرقعة الزراعية بواسطة المياه المخزنة.

اهتم كذلك بالعمران، وشيَّد هرمًا له بالقرب من الفيوم، كما شيَّد معبدًا ضخما في الفيوم هو معبد (اللابرنت)، (la byranthos)، ووصف هيرودوت المعبد بأنه يتألف من طابقين، وكان يضم ثلاثة ألاف غرفة، نصفها فوق الأرض ونصفها تحتها، ويبدو أن كثرة الغرف والحجرات بالمعبد دفعت البعض ليطلق عليه اسم (قصر التيه).

انتهى حكم الأسرة الثانية عشر، وانتقل العرش إلى ملوك أسرة جديدة هي الأسرة الثالثة عشر، ولكن الطريقة التي تم بها ذلك غير معروفة لنا، وسرعان ما حل الضعف بالبلاد، فحلت بمصر فترة من أصعب فتراتها على مر تاريخها، وهي ماعرف بمحنة الهكسوس.

- **محنة (غزو) الهكسوس:**

في ظل حالة الفوضى التي عمت البلاد في عصر الأسرة الثالثة عشر، أصبح المناخ مهيئًا للهكسوس للانقضاض على مصر، وبعد

أن احتلوا مصر السفلى و الوسطى، وعجزوا عن احتلال مصر العليا (جنوب الصعيد)، أقاموا مملكة لهم على الأرض التي احتلوها.

والهكسوس هم قبائل رعوية غزت مصر من ناحية الشرق، وقد تفوقوا على المصريين عسكريًا بشكل واضح، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة أعدادهم، وامتلاكهم لسلاح جديد لم يره الجيش المصري من قبل، وهو ما عرف بالعجلات الحربية التي تجرها الخيول.

اتخذ الهكسوس من مدينة أواريس (الزقازيق) عاصمة لدولتهم التي أقاموها في شمال ووسط مصر، وكان احتلال الهكسوس لمصر نكبة ومحنة كبيرة على مصر والمصريين، وأطلق المصريون على هؤلاء الغزاة لقب (عامو) والتي تعني الملوك الرعاة.

أساء الهكسوس معاملة المصريين، ولم يحترموا مقدساتهم، وحاول المصريون التخلص من احتلال الهكسوس مرارًا وتكرارًا، ولكن انتهت محاولاتهم إلى الفشل، حتى عادت طيبة من جديد.

• **حرب التحرير:**

حمل أمراء طيبة لواء الكفاح لتحرير البلاد من الهكسوس، وعلى مر التاريخ كانت طيبة (الأقصر) عامرة بالأمراء المخلصين للوطن،

وقد ارتبط الكفاح ضد الهكسوس باسم أحمس، إلَّا أننا لا يجب أن نغفل أن أبيه (سقنن رع) وأخيه (كامس) قد سبقاه في الكفاح ضد الهكسوس، إلَّا أنهما قد قتلا في حروبهما ضد الهكسوس في الوقت الذي كان أحمس فيه مازال صغيرا.

كان للملكة اياح حتب دورًا عظيمًا في تربية ابنها أحمس تربيًة جعلت منه هذا الفارس الشجاع البطل الذي استطاع هزيمة الهكسوس بعد أن أعد لهم جيدا، وجهز جيشه بالعجلات الحربية.

هزم أحمس الهكسوس في مصر ولاحقهم حتى أخرجهم من البلاد نهائيًا، وتعقبهم إلى فلسطين وحاصرهم لمدة ثلاث سنوات في حصن لهم يعرف بحصن (شاروهين).

ورغم أن مصر وشعبها لديهما القدرة على استيعاب أي هجرة تنزل بمصر، إلَّا أن وضع الهكسوس كان مختلفًا، فلم يختلطوا بالمصريين رغم أنهم تأثروا بالمصريين في عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وملابسهم.

على أي حال، وبانتصار أحمس على الهكسوس واستعادة السيطرة الكاملة على كل شبر من أرض مصر، يبدأ عصر الدولة الحديثة أو ما عُرِفَ بعصر المجد الحربي.

الفصل الثالث

عصر الدولة الحديثة (المجد الحربى)

بانتصار أحمس على الهكسوس يبدأ عصر الدولة الفرعونية الحديثة، هذا الانتصار الذي يعد بداية سلسلة الانتصارات التي حققها ملوك مصر في هذا العصر، والتي دفعتنا إلى تسميته بعصر المجد الحربي.

والواضح أن تلك الانتصارات لم تكن فقط لصد هجمات الأعداء الغزاة، بل كان منها معارك انتصر فيها الجيش المصري بغرض تدعيم ملك الإمبراطورية المصرية التي اتسعت لتشمل مناطق شاسعة في أسيا وأفريقيا، خاصة في عهد تحتمس الثالث، والذي كون بدوره إمبراطورية عظيمة عرف أنها أقدم وأول إمبراطورية في التاريخ.

تميزت هذه الفترة كذلك بوجود العديد من الأنبياء في مصر، والتي بدأت بقصة يوسف عليه السلام وتبعه إلى مصر أبيه النبي يعقوب عليه السلام وكل بني إسرائيل، وتوالى الأنبياء منهم حتى بعث فيهم نبي الله موسى عليه السلام، ومن المرجح كذلك أن بعد خروج بني إسرائيل من مصر قد حدثت مصاهرة بين النبي سليمان عليه السلام وملوك الفراعنة، حيث يقال أن سليمان عليه السلام قد تزوج من احدى بنات أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين.

1- الأسرة الثامنة عشر:

كما ذكرنا من قبل، يعتبر الملك أحمس أول ملوك هذه الأسرة، وفي عهد هذه الأسرة استعادت الملكية هيبتها، وتم تحرير البلاد وتوطيد استقلالها بعد محنة الهكسوس.

وقد تعاقب في أسرة أحمس اثنا عشر ملكًا حكموا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان وهم (أحمس – أمنحتب الأول– تحتمس الأول– تحتمس الثاني– حتشبسوت–أمنحتب الثاني– أمنحتب الثالث– أمنحتب الرابع– سمنخ كا رع– توت عنخ أمون– أي – حور محب)[1]

1– المرجع السابق – ص54

وسنتناول أشهر ملوك الأسرة بعد أحمس، وأهم أعمالهم بشئ من التفصيل:

أ–حتشبسوت: واضح من الاسم أنها امرأة، وكانت التقاليد الملكية تمنع تولي العرش امرأة منفردة، ولم يكن هناك سوابق لتولي ملكات منفردات عرش مصر، لذا زوجها أبوها لأخ لها من زوجة ثانوية، وكان هذا الأخ هو تحتمس الثاني.

استطاعت حتشبسوت أن تفرض شخصيتها على أخيها وتنفرد بالحكم، ومن ثم عملت على الايحاء لمن حولها ولكل الشعب المصري أنه لا فرق بينها وبين الرجال، وقامت بارتداء ملابس الرجال.

كان عصر حتشبسوت عصر ينعم بالرخاء والاستقرار اذ أنها لم تكن تميل إلى الحروب، وتفرغت للعمران ويشهد على ذلك معبدها في الأقصر والذي يعرف بالدير البحري.

اهتمت حتشبسوت بالبعثات التجارية، فأرسلت بعثة إلى بلاد بونت (الصومال) لاستيراد البخور والعاج والأحجار الكريمة وجلد الأسود، كما جلبت الأحجار الضخمة لبناء المعابد من أسوان.

ب–تحتمس الثالث: هو ابن تحتمس الثاني من زوجة ثانوية غير حتشبسوت، وقد انفرد بالحكم بعد وفاة حتشبسوت، ويعتبر

تحتمس الثالث أحد الأبطال العسكريين العظام، وهو صاحب أقدم إمبراطورية قامت في تاريخ البشرية.

سيطر تحتمس الثالث على الشام بعد أن أرسل ست عشرة حملة عسكرية أهمها هي التي قادها بنفسه وانتصر فيها على أمير قادش وغنم منه مغانم كثيرة، وعَرفت هذه المعركة باسم مجدو.

كما اتجه تحتمس الثالث ناحية الجنوب وسيطر على بلاد النوبة، بل وامتدت سيطرته حتى وصلت إلى شلال النيل الرابع.

استطاع كذلك أن يكون اسطولا عسكريا قويا مكنه من فرض سيطرته الكاملة على جزر البحر المتوسط، كما عرف أن تحتمس الثالث هو أول من اخترع حرب الاستباقية والمداهمة، وأول من قسم الجيش إلى قلب وجناحين.

على أي حال، كان تحتمس الثالث واحدًا من أهم القادة العسكريين الذين مروا على تاريخ مصر.

ج- أمنحتب الرابع: عُرِفَ أيضًا باسم (اخناتون)، وتزوج واحدة من أشهر ملكات مصر وهي (نفرتيتي)، ويبدو أنهما لم يهتما كثيرًا بشئون السياسة، بل انصب جل اهتمامهما على أمور العبادة والدين.

كانت عبادة الاله أمون هي العبادة الرسمية للدولة المصرية في ذلك الوقت، وجاورها العديد من العبادات لألهة أخرى ثانوية يبدو أنها اقتصرت على بعض المدن أو الأقاليم، فأراد أمنحتب الرابع أن يوحد كل الألهة والعبادات في إله واحد.

اختار أمنحتب الرابع اسم (أتـون) للاله الواحد، ورمز له بقرص الشمس التي تصل اشعاعتها إلى سائر المخلوقات، وغير اسمه إلى (اخناتون) والتي تعني خادم الاله أتون، وأقام عاصمة جديدة لتكون مركزا لعبادة الاله أتون، وهي مدينة (اخيتاتون)، إلَّا أن ذلك لم يستمر طويلًا حيث داهمته ثورة كهنة آمون وأتباعهم والتي أطاحت بحياته هو نفسه.

وقد ذهب كثير من المؤرِّخين إلى أن أمنحتب الرابع (اخناتون) هو الملك الذي حدث في عهده القحط الشهير الذي امتد سبع سنوات زمن وجود النبي يوسف عليه السلام في مصر، وأنا شخصيا أميل إلى هذا الرأي وبالأخص أن عصر اخناتون كان عصر ثورة دينية هدفت إلى توحيد الالهة، وبالأدق عبادة إله واحد، إلَّا أن الدليل المادي الذي يؤكد ذلك مازال غير موجود أمامي، لكن الحدث الأكيد، أن يوسف عليه السلام قد جاء إلى

مصر، ودارت أحداث قصته ثم تبعه نزول بني إسرائيل إلى مصرفي عصر الأسرة الثامنة عشر أو قبلها قليلًا.

د- توت عنخ أمون: على الأرجح هو الأخ الأصغر لإخناتون، وقد تولى الحكم وهو غلام صغير وحكم لمدة ثماني سنوات، وأبرز ما يميز عصره أنه ارتد عن عبادة أتون إلى عبادة أمون مرة أخرى، كما أعاد العاصمة إلى طيبة.

ولعل شهرة توت عنخ أمون ترجع إلى إكتشاف مقبرته كاملة عام 1922م، دون ان تصل إليها أيادي اللصوص، وقد نقلت أغلب محتوياتها من المقبرة بالأقصر إلى المتحف المصري بوسط القاهرة، حيث عثر على أثاثه الدنيوي وأثاثه الجنزي، وأروعها تابوته الذهبي وثلاثة توابيت أخرى مطلية بالذهب، كما عُثِرَ على كرسي عرشه وصندوقه الخاص وتماثيله الصغيرة المعروفة بالأوشابتي، أما أشهر متعلقاته على الإطلاق فهو القناع الذهبي الخاص به والذي يحمل ملامح وجهه اليافعة.

2- **الأسرة التاسعة عشر:**

رغم أن أول ملوك هذه الأسرة هو الملك (با رع مسسو) والذي عرف باسم (رمسيس) إلَّا أن ابنه سيتي الأول يعتبر هو المؤسس الحقيقي للأسرة التاسعة عشر.

وترجع أهمية هذه الأسرة في التاريخ إلى أن احتمالات أن تكون هي الأسرة التي خرج في عصرها بني إسرائيل من مصر احتمالات كبيرة جدا، على أي حال سنتناول أهم ملوك هذه الأسرة وأهم أعمالهم فيما يلي:

أ- سيتي الأول: يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الأسرة، اهتم بالحياة الدينية، واستغل المناجم خاصة مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، وحارب الحيثيين في الشام حروب عديدة.

ب- رمسيس الثاني: خلف أباه سيتي الأول عام 1290ق.م.[1] ولعل هذا التاريخ الذي تولى فيه رمسيس الثاني العرش ومن المؤكد أن اليهود خرجوا من مصر في حكم رمسيس الثاني أو في حكم ابنه مرنبتاح، هو أكبر دليل على افتراءات اليهود بأنهم سخروا لبناء الأهرام أثناء فترة وجودهم في مصر.

فبني إسرائيل دخلوا مصر قبل هذا التاريخ بفترة لاتتجاوز

1- المرجع السابق - ص63

الثلاثة قـرون، في حين بنيت الأهـرام المشهورة في عصر الأسرة الرابعة، أي قبل هذا التـاريخ بحوالي خمسة عشر قرنـًا.

وقد حكم رمسيس لمدة 67سنة، كانت مليئة بالأعمال لاسيما الأعمال العسكرية، فقد انتصر على الحيثيين في معركة عظيمة حدثت في قادش بالشام وعرفت باسم (قادش) أيضا، ورغم انتصاره الكبير إلَّا أنه آثر أن يعقد معهم معاهدة سلام، والتي يبدو أنها كانت أقدم معاهدة سلام في التاريخ، ونال رمسيس الثاني بسبب هذه المعاهدة لقب بطل الحرب والسلام.

ولرمسيس الثاني معبدين مشهورين في أبي سمبل، وعُرِفَ عن عصره كذلك بناء المسلات الضخمة.

ج– مرنبتاح: هو ابن رمسيس الثاني،وعرفنا عن رمسيس الثاني أنـه قد تـزوج عدة زيجات، وقد تصدى مرنبتاح لهجمات الليبيين القادمة من الحدود الغربية، إلَّا أن أهم ما يميز عصر مرنبتاح هو لوحته الشهيرة الموجودة في المتحف المصري بوسط القاهرة، والتي ذكر فيها اسم الإسرائيليين لأول مرة في التاريخ المصري، وتوضح هذه اللوحة أنه اشتد عليهم وتتبعهم وأراد الانتقام منهم.

3- الأسرات من 20 إلى 30:

لم يكن ملوك هذه الفترة كسابقيهم من ملوك الفراعنة، إلَّا قليلهم، فكثرت الغارات على مصر من جميع الجهات، وطمع الغزاة فيها بسبب ضعف حكامها حتى انتهى الأمر إلى سقوط مصر في يد الغزاة الفرس.

وقد عُرِفَ هذ العصر الذي ضم الأسرات من العشرين وحتى الأسرة الأخيرة باسم (العصرالمتأخر)، وكان لبعض ملوك هذه الفترة بعض الأعمال العظيمة، سنتناول بعضها.

أ- رمسيس الثالث: من ملوك الأسرة العشرين، وأهم أعماله هي تصديه لهجمات شعوب البحر المتوسط التي هاجمت مصر برا وبحرا.

ويبدو أن مصر قد سقطت في يد الليبيين بعد ذلك، ثم استطاع أمراء النوبة تكوين الأسرة الخامسة والعشرين الفرعونية والتي عرفت باسم (الأسرة النوبية)، إلَّا أن حكمها لم يدم طويلا حيث سقطت مصر في يد الأشوريين.

ب- أبسماتيك الأول: من ملوك الأسرة السادسة والعشرين والتي عرفت بالعصر (الصاوي) وقد استطاع تحرير مصر من الأشوريين.

ج– نخاو(نكاو) الثاني: هو خليفة أبسماتيك الأول، والذي استطاع أن يحافظ على حدود الدولة ويتصدى للمغيرين، كما قام بإعادة حفر قناة سيزوستريس التي كانت قد حفرت في عهد سنوسرت الثالث، كم أرسل بعثة تجارية للدوران حول أفريقيا استغرقت ثلاث سنوات ويبدو أن البحارة الذين قاموا بهذه الرحلة بأمر الملك نخاو كانوا من الفينيقيين.

على أي حال، بعد وفاة نخاو مرت مصر بفترة عصيبة، وازداد النفوذ الأجنبي في مصر خاصة أن الجيش المصري في هذا الوقت كان معظمه من المرتزقة الإغريق، كما اشترك اليهود في هذه المؤامرة والتي انتهت بسقوط مصر في يد الفرس.

ففي عام 525ق.م. هاجم (قمبيز) ملك الفرس مصر، وساعده (فانيس) الخائن قائد جيش المرتزقة الإغريق في مصر وانضم اليهود إلى هذه المؤامرة فسقطت مصر في يد الفرس وظلت منذ ذلك التاريخ خاضعة لحكمهم حتى مجئ الإسكندر الأكبر إلى مصر 332ق.م. الذي طرد الفرس من مصر، واستبدلت مصر الحكم الفارسي بالحكم المقدوني

وبذلك نطوي صفحة من صفحات تاريخ مصر الممتلئ بالأحداث والشخصيات العظيمة، وننتقل إلى تناول عصر أخر وشخصيات أخرى.

الباب الثالث

مصر والإسكندر

الفصل الأول

الإسكندر فى مصر

ولد الإسكندر في إقليم مقدونيا الذي يقع شمال بلاد اليونان، حوالي عام 356ق.م.وهو ابن الملك فيليب المقدوني الذي استطاع توحيد بلاد الإغريق القديمة تحت حكمه، وقد قتل الملك فيليب في تمرد حدث ضده عام 336ق.م. ولم يكن الإسكندر قد تجاوز العشرين من عمره، ووجد نفسه خليفة لوالده في حكم بلاد الإغريق.

تصدى الإسكندر بمنتهى الحزم لتمرد المدن الإغريقية رغم حداثة سنه، واستطاع أن يعيد اخضاعها لنفوذه، ومن ثم شرع في تنفيذ مشروعه الكبير الذي حلم به.

فرغم أن الإسكندر قد تعلم فنون الحرب والقيادة من والده، إلَّا أن الفيلسوف الكبير أرسطو يعتبر هو المعلم الأول للإسكندر، فنشأ الإسكندر محبا للحضارة الإغريقية حالما بتصديرها إلى كل العالم القديم.

حلم الإسكندر ببسط نفوذه على العالم القديم وجعله تحت حكمه، وقد واجه في سبيل تحقيق حلمه العديد من العقبات أبرزها سيطرة إمبراطورية الفرس القوية على معظم أنحاء العالم القديم ومن ضمنه مصر.

عقد مؤتمر في كورنثا انتخب فيه الإسكندر رسميًا لخلافة أبيه في زعامة الاتحاد الهلليني، وقيادة الحرب المقدسة ضد الإمبراطورية الفارسية.

خرج الإسكندر من بلاد اليونان قاصدًا الشرق لتحقيق حلمه، وحقق انتصارات كبيرة وسريعة ومتتالية على الفرس وملكهم داريوس، وفي نوفمبر سنة 332ق.م.، وصل الإسكندر إلى مصر والتي تعتبر أخر الولايات الفارسية في الغرب، حيث كانت مصر ولاية فارسية منذ سقوطها في يد الفرس سنة 525ق.م..

دخل الإسكندر مصر وسط ترحيب هائل من المصريين، ذلك الترحيب الذي يفسر لنا مدى الظلم والبطش الذي عانى منه الشعب المصري تحت الحكم الفارسي، وعلى أي حال فقد أدرك الوالي الفارسي عبث المقاومة أمام الإسكندر، فأسرع بتقديم فروض الولاء والطاعة له.

قضى الإسكندر في مصر شتاء عام 332ق.م.، وتوج فرعونا على البلاد في معبد الرب بتاح في منف بحسب التقاليد المصرية، كما سلك الإسكندر مسالك الفرعون، فقدم القرابين للألهة المصرية وأقام الاحتفالات لتكريمها.[1]

وعلى الأرجح أن اهتمام الإسكندر بالألهة المصرية كان بدافع كسب ثقة وتعاطف الشعب المصري الذي عانى كثيرًا في ظل حكم الفرس من البطش والاضطهاد وعدم احترام الألهة المصرية.

ورغم قصر فترة مكوث الإسكندر في مصر، إلَّا أنه قام بأعمال عظيمة في مصر منها قيامه برحلة دينية إلى معبد الإله أمون في واحة سيوة بالصحراء الغربية والتي كانت سببًا في منحه لقبًا جديدًا أضيف إلى قائمة ألقابه، وهو لقب (ابن الاله أمون).

أما عن أهم أعمال الإسكندر في مصر فكان بناء مدينة الإسكندرية، وقد اختار موقعها مكان قرية قديمة تعرف باسم (راقودة) يقابلها في البحر جزيرة (فاروس) وردم البحر بينهما فأصبحت كل هذه المساحة هي مدينة الإسكندرية القديمة التي بناها الإسكندر.

1- الشرق الأدنى في العصر الهللينستي - د.عبد الحليم محمد حسن -ص25

ويبدو أن بناء الإسكندرية لم يكن له غرض واحد، بل تعددت الأغراض من بنائها، فقد أراد الإسكندر بها أن تكون عاصمة لمصر تحمل اسمه وتخلد ذكراه، كم أراد منها أن تكون مركزًا لإشعاع الحضارة الهللينستية الإغريقية.

بعد أن إطمأن الإسكندر لأمر مصر، ترك بها حامية واستكمل رحلته شرقًا، وتوالت انتصاراته على الفرس من جديد كان أهمها انتصاره في جاوجاميلا331ق.م.

مرض الإسكندر فجأة وهو على مشارف بلاد الهند، فنقل إلى بابل ليتلقى العلاج إلَّا أنه مالبث أن تُوفي، وبحسب وصيته فقد حمل جثمانه إلى الإسكندرية ليدفن بها.

وبوفاة الإسكندر تنتقل مصر إلى عصر أخر عرف باسم عصر البطالمة.

الباب الرابع

مصر فى عصر البطالمة

الفصل الأول

عصر القوة

• مصر بعد وفاة الإسكندر:

تشير الكثير من الدلائل إلى وجود علاقات متميزة بين مصر والعالم اليوناني منذ عصر الأسرة السابعة عشر، وقد شهدت هذه العلاقات تطورًا كبيرًا في عصر الأسرة السادسة والعشرين التي أسسها الملك أبسماتيك الأول حيث تردد التجار الإغريق (اليونان) على مصر بشكل ملفت للنظر، بل واستقر بعضهم في مصر وتحديدًا في مدينة الإسكندرية ذات الطابع اليوناني الخاص، كما أشار العديد من المؤرِّخين إلى عمل الإغريق كجنود مرتزقة في مصر بنسبة كبيرة، حتى قيل أن معظم جيش الملك أبسماتيك الذي اعتمد عليه في طرد الأشوريين من مصر، كان قوامه من الإغريق.

من ناحية أخرى، فإن الإسكندر قبل أن يرحل عن مصر في

اتجاه رحلته شرقا، فقد عمل على تنظيم شئون مصر، ومنحها استقلالا داخليا،وجعل حكم الوادي ثنائيًا بين (بتيسيس)المصري و(دولواسبيس)الذي يبدو أنه كان أجنبيا أما الدلتا ومايجاورها فقد جعل حكمها أيضًا في يد اثنين هما: (أبولونيس بن خارينوس) و(كليومينيس النقراطيسي).[1]

وقد أدت وفاة الإسكندر المفاجئة بعد مغادرته لمصر مع عدم وجود وريث مناسب له إلى حدوث مشكلة كبيرة ترتب عليها عقد مؤتمر في بابل حضره قواد الإسكندر وانتهى المؤتمر إلى تقسيم إمبراطورية الإسكندر بين قواده، فكانت مصر من نصيب القائد (بطلميوس الأول) الذي أسس دولة البطالمة في مصر، والتي قاربت فترة حكمها من ثلاثة قرون، حمل كل ملوكها اسم بطلميوس.

• **العصر البطلمي الأول (عصر القوة والازدهار):**

قسم المؤرِّخون دولة البطالمة إلى عصرين، هما:

1. العصر البطلمي الأول: وهو العصر الذي شهد قوة عسكرية وازدهار اقتصادي
2. العصر البطلمي الثاني: وهو عصر ضعف وانهيار انتهى بالاحتلال الروماني لمصر

1- محاضرات في تاريخ مصر في العصر البطلمي - ص-12 د.عودة عبد الواحد.

يبدأ العصر البطلمي الأول بالملك بطلميوس الأول مؤسس الدولة وينتهي بنهاية عصر بطلميوس الثالث، ذلك العصر الذي احتفظت فيه مصر بقوتها وحافظت على سياستها الداخلية المستقلة دون أي تدخل خارجي، وسنتناول أهم أعمال البطالمة الثلاثة الأوائل.

1- **بطلميوس الأول:**

هو بطلميوس بن لاجوس، من أقرب اصدقاء الإسكندر إليه، تربى معه في قصر أبيه الملك فيليب الثاني، وكان يكبر الإسكندر بعشر سنين، واشترك مع الإسكندر في حروبه وفتوحاته.

تولى بطلميوس الأول حكم مصر وفقا لما أقره مؤتمر بابل، ويبدو أنه أعتبرها غنيمة حرب أخذها بحد السيف فصارت ملكًا خاصًا له، لذا دخل العديد من الحروب وأقام العديد من التحالفات لضمان الحفاظ على مملكته.

اعتبر نفسه فرعونا الها كملوك الفراعنة، وتتبع خطاه كل ملوك البطالمة من بعده، كما أقاموا المعابد للألهة المصرية، واحترموها وقدسوها تقربًا للمصريين.وكما امتزجت الحضارة المصرية مع الحضارة الإغريقية امتزاجا نتج عنه حضارة لها شكل جديد عرفت بالحضارة الهللينستية، فقد امتزجت كذلك الديانة المصرية

مع الديانة اليونانية وخرجتا بعبادة جديدة عرفت بعبادة الاله (سيرابيس).

خلع لقب المنقذ (سوتير) على بطلميوس الاول، ويبدو أن هذا اللقب منح له بعد وفاته وليس في حياته، وقد اهتم بطلميوس الأول بالمشروعات الاقتصادية في كافة المجالات وأدخل العديد من الاصلاحات في الزراعة والصناعة، واهتم كذلك باصدار التشريعات التي تخدم الحركة التجارية، وكذلك إقامة الأسواق والموانئ التجارية حتى أصبحت الإسكندرية في عصر البطالمة من أهم الموانئ ان لم تكن أهمها في حوض المتوسط.

اهتم بطلميوس الأول بالجانب العلمي والثقافي فأقام أول دار للعلم في العالم القديم وعرفت بجامعة الإسكندرية والتي كان لها دورا مهما في تخريج علماء عظام أسهموا بعلمهم في خدمة البشرية، منهم:

- أرشميدس: الذي توصل إلى قانون الطفو.
- اقليدس: الذي وضع أصول علم الهندسة.
- بطلميوس: أحد أشهر علماء الجغرافيا.
- مانيتون: المؤرِّخ الذي قسم تاريخ الفراعنة إلى ثلاثين أسرة.

ولخدمة الجامعة وطلابها، قام بطلميوس الأول بتشييد مكتبة

الإسكندرية وهي أول مكتبة حكومية في العالم القديم، وأمدها بالمخطوطات وأمهات الكتب التي قدرت أعدادها بأكثر من نصف مليون كتاب ومخطوطة بمختلف لغات العالم القديم، ولكن للأسف دمرت هذه المكتبة في أواخر عصر البطالمة وتحديدًا سنة 48ق.م.

شرع بطلميوس الأول في بناء منارة الإسكندرية والتي أعتبرت واحدة من عجائب العالم القديم، وكان الغرض منها ارشاد السفن القادمة إلى ميناء الإسكندرية، ويقال أن أضوائها كانت ترى من مسافة 50كم داخل البحر المتوسط.

كان له السبق في ضرب أول عملة معدنية، وإدخال أصناف جديدة من الفاكهة وسلالات جديدة من الحيوانات لم تكن معروفة في مصر قبل البطالمة، وأبقى بطلميوس الأول ومن خلفه من ملوك البطالمة على الإسكندرية عاصمة سياسية للبلاد، وتُوفي بطلميوس الأول في 283ق.م.، وخلفه بطلميوس الثاني.

2- **بطلميوس الثاني:**

انفرد بطلميوس الثاني بالحكم بعد وفاة أبيه بطلميوس الأول، ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وحمل في كتب التاريخ لقب (فيلاد لفوس) والذي يعني المحب لأخته، وقد كان

تربية قصور، رقيق، لم يخرج على رأس الجيش مثل أبيه.

تتلمذ على يد علماء أجلاء أمثال الفيلسوف (أستراتون) والشاعر (فيلتاس)، فنشأ مثقفًا مولعًا بالتاريخ والجغرافيا، وأقام حديقة حيوان في الإسكندرية، كما اهتم بمكتبة دار العلم في الإسكندرية التي أرسى أساسها أبوه، وأنشأ مكتبة السيرابيوم.

3- **بطلميوس الثالث:**

تولى العرش عام 246ق.م. بعد وفاة أبيه، ويبدو أنه كان يحمل من صفات الطيبة والخير الكثير، حتى أطلق عليه لقب (يورجيتيس) والذي يعني الخير، وكما كان أبوه فقد نشأ هو كذلك مثقفًا لبقًا يجيد الخطابة حيث تتلمذ على يد الشاعر (أبولونيوس الروديسي)، وقد عمل على إصلاح التقويم.

توفي 221ق.م.، وبوفاته ينتهي العصر البطلمي الأول، وبتولي بطلميوس الرابع تدخل مصر مرحلة جديدة في العصر الثاني للبطالمة، شهدت فيه مصر تدهورًا ملحوظًا في كافة المجالات بالإضافة إلى تدخل روما في شئونها الداخلية.

الفصل الثانى

عصر الضعف والإنهيار

منذ تولي بطلميوس الرابع حكم مصر بدأ منحنى قوة دولة البطالمة في الهبوط تدريجيا حتى وصل إلى أدنى مستوياته زمن كليوباترا السابعة أخر ملوك البطالمة والتي شهد عصرها احتلال الرومان لمصر.

لم يسهم ملوك البطالمة في هذا العصر بإسهامات ملحوظة، ويبدو أن كليوباترا السابعة هي أشهرهم لذا سنتناول نبذة عن فترة حكمها لمصر، وقبل ذلك يجب أن نجيب على هذا السؤال، ما هي أسباب الضعف الذي دب في أركان دولة البطالمة مما جعلها تفقد سيطرتها في الداخل والخارج، وتتراجع في كافة المجالات ؟

يمكن أن نلخص أسباب ضعف وسقوط دولة البطالمة في أربعة نقاط مهمة، وهي:

1. من الجلي أن ملوك البطالمة في العصر البطلمي الثاني، لم يكن أحدهم يملك من القوة ورجاحة العقل وحسن التصرف شيئًا مما كان عند سابقيهم من ملوك العصر البطلمي الأول.
2. زادت ثورات الشعب المصري الذي حرم من المشاركة في حكم بلاده، إذ اقتصرت الوظائف المهمة في الدولة على الإغريق.
3. تراجع المشروعات الاقتصادية، وعدم الاهتمام بالحياة العلمية
4. زيادة نفوذ روما وتدخلها في الشئون الداخلية لمصر، بحكم أنها القوة العظمى في العالم أنذاك، خاصة بعد تراجع قوة دولة البطالمة وخضوع ملوكها لروما خشية غضب أباطرة الرومان عليهم.

• **كليو باترا السابعة** (51ق.م.-30ق.م.):

بعد وفاة بطلميوس الثاني عشر والذي عرف ب (الزمار) خلفه بنتين وولدين، كانت كليوباترا السابعة أكبرهم، وأوصى الزمار بأن يتزوج أكبر ابنيه من كليو باترا ويتوليان العرش سويًا، وكان زواج الأخوة شائعًا عند ملوك البطالمة للحفاظ على نقاء الدم الملكي على حسب زعمهم.

على أي حال، حاول أبناء الزمار انعاش دولتهم، وفي المقابل

كانت الحرب الأهلية في روما على أشدها، تلك الحرب التي اكتوى بنارها حوض البحر المتوسط بمجمله.

كانت كليوباترا من طراز الأميرات المقدونيات اللائي عشقن الحكم والمجد، ولا تتورع في التضحية في سبيله بكل رخيص وغال، كانت تتمتع بجمال وافر وجاذبية لاتقاوم ولسان زلف طري، واتخذت لقب ايزيس الجديدة.[1]

استغلت كليوباترا انتصار قيصر في الحرب الأهلية في روما، وقدومه إلى الإسكندرية، ورمت شباكها حوله حتى تزوجته وانجبت له ولدًا أطلق عليه اسم قيصر، وكناه السكندريون (قيصرون).

يبدو من ذلك أن كليو باترا لم تكن تهدف إلى الانفراد بحكم مصر فقط، بل طمحت في أن تشارك قيصر حكم روما وإمبراطوريتها الواسعة، ولم لا ؟ فقد استطاعت أن تربط اسمها باسم أقوى رجل في العالم حينئذ، يوليوس قيصر.

ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث قتل يوليوس قيصر، وبمقتله انقسم العالم الروماني إلى فريقين: فريق بزعامة ماركوس أنطونيوس و فريق بزعامة أوكتافيوس.

1- د.عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص78

شهدت الأحـداث تطورًا سريعًا أدت إلى تقسيم الإمبراطورية الرومـانيـة بين القـائدين، حيث حكم أوكتـافيوس القسم الغربي من الإمبراطوريـة، بينمـا ذهب حكم القسم الشرقي منـهـا إلى أنطونيوس.

عـادت كليو بـاترا لسـاحة الأحداث من جديد، لعلهـا تجد في أحد القـائدين يوليوس قيصر جديد، وبـالفعل استمـالت أنطونيوس، وانجبت منه توأم همـا (هـليوس – سيليـنـي)، هـذا في الوقت الذي شهدت فيه العلاقة بين أنطونيوس وأوكتـافيوس المزيد من التوتر وكـان السبب الرئيس في هذا التوتر هو اهداء أنطونيوس بعض الأراضي التي فتحها في الشرق إلى كليوبـاترا وأبنـائهـا، الأمر الذي اعتبره أوكتـافيوس وفريقه اهـانة للدولة الرومـانيـة.

على أي حـال، نشبت العديد من المعـارك بين أنطونيوس المدعوم من كليوبـاترا من جهة، وفي المقـابل أوكتـافيوس، إلَّا أن أهـم هذه المعـارك وأشهرهـا هـي معركة أكتيوم البـحرية قرب سواحل بلاد اليونـان.

نـال أسطول أنطونيوس والمدعوم بـالأسطول البطلمي هزيمة سـاحقة في أكتيوم سنة31ق.م. أمـام أسطول أوكتـافيوس، ولم يكن أمـام أنطونيوس وكليوبـاترا إلَّا الفرار في اتجـاه الإسكندريـة.

تعقب أوكتافيوس كل من انطونيوس وكليوباترا إلى الإسكندرية، وقد تيقنا تماما أنهم في عداد الأسرى أو القتلى، فلا قبل لهما الآن بأوكتافيوس الذي دمر لهما معظم السفن في البحر، كما أعلنت بعض قوات أنطونيوس ولائها إلى أوكتافيوس.

لذا، فضل أنطونيوس الانتحار على أن يقع أسيرا في يد عدوه، ويقال أنه قام ببقر أمعائه بخنجره، ولحقت به كليوباترا والتي تعددت محاولاتها للانتحار وكانت تمنع في كل مرة، إلّا أنها تمكنت من ذلك في النهاية بواسطة ثعبان الكوبرا حتى تموت موتة ملكية كما أرادت وتمنت.

وفي عام 30ق.م. كان أوكتافيوس قد أحكم سيطرته على مصر كلها معلنًا بذلك انتهاء عصر البطالمة، وتحولت مصر إلى مجرد ولاية رومانية، ولكن كان لها مكانة خاصة عند الرومان.

الباب الخامس

مصر تحت حكم الرومان

الفصل الأول

مصر والرومان

عرفنا في الباب السابق أن مصر تحولت إلى ولاية رومانية في عام 30ق.م. بعد دخول أوكتافيوس الإسكندرية وانتحار كليو باترا السابعة أخر ملوك البطالمة في مصر.

ونظرا لأهمية مصر الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية بالنسبة للرومان، فقد جعلها أوكتافيوس تحت حكمه المباشر.

كانت مصر هي حقل ومستودع القمح لروما، ويمكننا أن نقول أن فترة حكم الرومان لمصر كانت فترة استغلال اقتصادي في المقام الأول، حيث أعتبر الرومان أن مصر عبارة عن حقلٍ كبيرِ لزراعة القمح لاطعام الشعب الروماني.

كل هذا جعل الرومان يضعوا لمصر نظامًا عسكريًا واداريا محكمًا يختلف عن سائر الولايات الآخرى.

وقد عبر المؤرّخ الروماني الشهير (تاكيتوس) عن ذلك بقوله:

"تولى مصر منذ أيام أغسطس المؤله فرسان رومان في منزلة الملوك"

فمن المعروف أن حكم الولايات الرومانية تولاه مندوبين أو نواب عن أغسطس، وكان يختار أغسطس مندوبين للولايات الرومانية المهمة حيث يتواجد فيها حاميات من الفرق الرومانية من بين أعضاء مجلس الشيوخ الذين سبق لهم تولي القنصلية دون الالتزام بسنوات معينة بعد اعتزالهم العمل في روما، وقد سماهم جميعًا بلقب واحد هو (نائب أغسطس البروبريتور– legatus augusti proprietor) ، أما مصر فقد اختار لها حاكمًا مختلفًا من بين طبقة الفرسان وحمل لقبًا مختلفًا وهو لقب (برايفكتوس – praefectus).[1]

لم يختلف وضع مصر كثيرًا في عهد خلفاء أغسطس (أوكتافيوس)، ولعل كان أشهرهم (فسباسيانوس – سبتميوس – سيفيروس – كاراكلا – كاليجولا – كلوديوس – نيرون).

إلَّا أن الإمبراطورية الرومانية، مثلها كغيرها من الدول والإمبراطوريات، قد مرت بحالة من الضعف وشبه الانهيار في

1– (1) د.محمد فهمي عبد الباقي – محاضرات في تاريخ الرومان – ص125

أواخر القرن الثاني الميلادي حتى مجئ الإمبراطور (دقلديانوس) ووصوله إلى الحكم في عام 284م، والذي عمل على برنامج اصلاحي لشتى المجالات في الإمبراطورية الرومانية كلها بما في ذلك الولايات التابعة لها وأهمها مصر.

ولكن كانت مصر حالة خاصة بالنسبة لدقلديانوس في هذا الوقت، حيث انتشرت المسيحية بين عدد كبير من المصريين وهو ما لم يكن في صالح الإمبراطورية الرومانية الوثنية وأباطرتها.

ومن المعروف أن المسيحية دخلت مصر حوالي منتصف القرن الأول الميلادي على يد القديس مرقس الرسول أحد أبرز رسل السيد المسيح السبعين والذي كان له دورًا كبيرًا في التبشير بالمسيحية في مصر وشرع في تأسيس أول كنيسة في مصر (الكنيسة المرقسية بالإسكندرية)، كما أسس أيضًا المدرسة اللاهوتية المسيحية في الإسكندرية.

على أي حال انتشرت المسيحية في كل أنحاء القطر المصري في القرن الثاني الميلادي، وهناك العديد من الأدلة على ذلك لعل أهمها، اكتشاف أربع برديات حفظت لنا نَصًّان من انجيل يوحنا، وترجع كتابتها إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، كما عثر أيضًا على نسخ من العهد القديم مكتوبة باليونانية، وكذلك

ما جاء في بردية اهناسيا من أقوال السيد المسيح " ارفع قطعة الخشب فسوف تجدني،اقلب الحجر تجدني "، وهذه دلائل على انتشار المسيحية في مصر.[1]

كلما انتشرت المسيحية، كلما زاد اضطهاد الرومان للشعب المصري المسيحي، فيمكن الجزم بوجود علاقة طردية بين انتشار المسيحية في مصر واضطهاد الرومان للمصريين.

وهذا ما دفع الشعب المصري إلى فكرة الهروب من الاضطهاد الروماني إلى الرهبنة والديرية في الصحاري المصرية الواسعة حفاظًا على دينهم وحياتهم.

ومن شدة بطش دقلديانوس بالمسيحيين اتخذت الكنيسة القبطية من عام 284م بداية للتقويم القبطي، وهو عام تولي دقلديانوس مقاليد الحكم في الإمبراطورية الرومانية.

ظل هذا الاضطهاد في أبشع صورة له، حتى وصل الإمبراطور قسطنطين العظيم إلى حكم الإمبراطورية الرومانية، ومعه حدث تحول خطير أدى إلى تغير ملامح الإمبراطورية الرومانية كلها وولايتها وأهمها مصر.

1- (1) تاريخ مصر في العصر البيزنطي – د. ليلى عبد الجواد –ص25

فقد شهد عصر قسطنطين (306-337م) حدثين مهمين أولهما:

1. الاعـتراف بـالمسيحية دينا مصرحا به في الإمبراطورية الرومـانية، فيمـا عرف ب (هبة قسطنطين) عـام 313م، وعرف أيضًـا بـاسم (مرسوم ميلان).
2. نقل عـاصمة الإمبراطورية من رومـا إلى القسطنطينية على ضفـاف مضيق البسفور.

فقد استقر قسطنطين على إقـامة عـاصمة جديدة على أنقـاض مدينة بيزنطة القديمة، والتي عرفت بـاسم الإمبراطورية البيزنطية، وتحولت الولايات التـابعة لهـا إلى ولايـات بيزنطية، ليبدأ بذلك تـاريخ مصر في العصر البيزنطي.

الفصل الثانى

مصر فى العصر البيزنطى

كما ذكرنا في الفصل السابق أن مصر أصبحت ولاية رومانية عام 30ق.م.، وظلت مصر معروفة بأنها ولاية رومانية حتى تحولت إلى ولاية بيزنطية في عصر الإمبراطور قسطنطين العظيم الذي قام ببناء العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي عرفت باسم (بيزنطة – القسطنطينية) وأصبحت مصر ولاية بيزنطية منذ ذلك التاريخ (306–337م) وهي فترة حكم قسطنطين، حتى جاء الفتح العربي الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص عام 641م وانتقل حكم مصر بذلك من البيزنطيين وإمبراطورهم (هرقل) إلى المسلمين.

لم تختلف مظاهر الحياة في مصر البيزنطية عنها في مصر الرومانية كثيرًا، فالاضطهاد الروماني للمصريين ظل كما هو، ولم يلمس المصريون أي تغير في سياسة الحكم نحوهم، وظل الشعب

المصري مهمشًا مضطهدًا لا ينال أبسط الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الإنسان لا المواطن حتى.

وهنا سؤال يطرح نفسه !!

بما أن اضطهاد الرومان للمصريين كان اضطهادا دينيًا، حيث ترك المصريين الديانات الوثنية وتقديس الإمبراطور الروماني، واعتنق معظم شعب مصر في هذا الوقت الديانة المسيحية.

اذن، لماذا استمر الروم البيزنطيين في اضطهاد الشعب المصري (الأقباط) رغم اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية ديانة معترف بها داخل حدود الدولة ؟

الإجابة وباختصار هي أن اضطهاد الروم للأقباط تحول من اضطهاد ديني في العصر الروماني إلى اضطهاد مذهبي في العصر البيزنطي، حيث اعتقد الأقباط في مذهب مسيحي مختلف عن المذهب الذي اعتنقه الإمبراطور وكهنته، وفرضوا مذهبهم على الرعية، فكان ذلك كفيلًا لاستمرار الاضطهاد الذي عانى منه الأقباط على يد الروم سواء كان في العصر الروماني، أو في العصر البيزنطي.

- **النظام الإداري في مصر في العصر البيزنطي:**

وفقا لاصلاحات دقلديانوس، أصبحت مصر ولاية تابعة لدوقية

الشرق التي كان يحكمها كونت الشرق، وقد قسمت مصر من الناحية الإدارية زمن دقلديانوس إلى ثلاثة اقاليم، هي:

1. شرق الدلتا ومصر الوسطى
2. طيبة
3. غرب الدلتا والإسكندرية

وكان يحكم الإقليمين الأولين حاكمين اتخذ كل منهما لقب (برايسس praeses).

أما الإقليم الثالث (الإسكندرية) فوضع تحت امرة حاكم يحمل لقب والي مصر (prafecjus aegypti)، ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميليه، هذا ويخضع الحكام الثلاثة لسلطة كونت الشرق، ويتولى هؤلاء الحكام الثلاثة السلطة المدنية، أما السلطة العسكرية فقد تولاها قائد يحمل لقب (دوق مصرDuxa Egypti)[1]

وظل هذا التنظيم الاداري ساري في عهد الإمبراطور قسطنطين العظيم الذي سار عليه هو ومن بعده من الأباطرة البيزنطيين مع إدخال اصلاحات طفيفة.

ويتضح من الدراسة أن كل التنظيمات التي قام بها الأباطرة الرومان أو البيزنطيين، سواء كانت تنظيمات ادارية أو عسكرية أو مالية أو غيرها، يتضح عدة نقاط مهمة، وهي:

1- تاريخ مصر في العصر البيزنطي - د.ليلى عبد الجواد -ص87

1. أهمية مصر للروم وغيرهم من الناحية الاستراتيجية والعسكرية، لذلك كان لابد من وضع نظامًا اداريًا يحكم من خلاله السيطرة التامة على البلاد.
2. كل التنظيمات التي قاموا بها على كل المستويات هدفت إلى استغلال واستنزاف كل موارد مصر لصالحهم.
3. أرهق الشعب المصري إرهاقًا بالغًا في دفعه للضرائب الظالمة والغير مبررة في أحيان كثيرة، وكذلك في طرق جبايتها.
4. عانى الشعب المصري في ظل حكم الروم من الاضطهاد الديني والذي تحول إلى اضطهاد مذهبي في العصر البيزنطي.
5. منع الشعب المصري من مجرد الاشتراك في حكم بلاده.
6. تمتع اليونان واليهود في مصر بامتيازات لم تمنح للمصريين الذين حرموا من أقل حقوقهم.

كل هذا وأكثر جعل الشعب المصري يطمح إلى التخلص من هذا المستعمر الغاصب الذي استنزف موارد البلاد، وسرق أقوات العباد، وأذاقهم مر الاضطهاد، فرحب المصريون بالمسلمين الفاتحين الذين جاءوا من الشرق، بل وقدموا له كل العون، حتى تمكن القائد المسلم عمرو بن العاص من فتح مصر والانتصار على الروم عام 641م.

ليبدأ عصر جديد في تاريخ مصر، وهو الأزهى والأهم، ألا وهو تاريخ مصر في عصر الدولة الإسلامية.

الباب السادس

مصر والفتح الإسلامى

الفصل الأول

ظهور الإسلام وفتح مصر

• **ظهور الإسلام:**

ولد النبي محمد ﷺبمكة في العام الذي أطلق عليه العرب عام الفيل والأرجح عندنا أنه عام 570م

ويمتد نسبه ﷺإلى قبيلة قريش واحدة من أشهر قبائل العرب وأوسطها نسبًا، ورغم أنهم عرفوه بالصدق والأمانة طوال حياته، إلّا أنهم كذبوه ولم يؤمن منهم الا القليل.

وقصة انتشار الإسلام ليست مجال بحثنا هذا، وهي تحتاج إلى مجلدات عدة، وعلى أي حال فقد هاجر النبي ﷺمن مكة إلى المدينة المنورة والتي كانت تعرف باسم يثرب، وأدت الهجرة النبوية الشريفة إلى قيام الدولة الإسلامية التي أصبحت المدينة عاصمتها السياسية،وأصبح ﷺأول رئيس لهذه الدولة.

بدأ الإسلام ينتشر بين قبائل العرب بشكل تدريجي، وبدأ المسلمون يوجهون أنظارهم لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع الأرض، في الوقت نفسه الذي واجهت فيه الدعوة الإسلامية أخطارًا جمّة، ولعل أبرزها كفار قريش وغيرها من قبائل العرب، وكذلك مؤامرات يهود المدينة ضد النبي والإسلام.

في ظل هذا وذاك ما كان للمسلمين من بُد إلّا وضع النواة الأولى لأول جيش إسلامي وكان النبي ﷺ هو القائد الأعلى لهذا الجيش.

دارت عدة غزوات ومعارك، ووجهت العديد من السرايا بأمر من النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وكان أول الغزوات هي غزوة بدر والتي حدثت في العام الثاني من الهجرة، ومن أشهرها أيضًا غزوة بني قينقاع، وغزوة أحد، ثم غزوة الخندق (الأحزاب)، وغيرها.

إلّا أن العام السادس من الهجرة يعتبر عاما فارقا في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ البشرية كلها، دون مبالغة في ذلك، هذا لأن العام السادس من الهجرة قد شهد عقد النبي صلحًا مع كفار قريش عرف باسم صلح الحديبية نسبة للمكان الذي عقد فيه هذا الصلح، وكان لهذا الصلح العديد من البنود أهمها البند الذي نص على هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

ونرى أهمية هذا البند في أنه فتح المجال أمام الدعوة الإسلامية للانتشار خارج شبه الجزيرة العربية، وما لبث النبي ﷺ بعد عقد الصلح إلّا وقد أرسل الرسل شرقا وغربا إلى الدول والولايات والامارات الموجودة خارج شبه الجزيرة العربية يدعوهم إلى عبادة الله الواحد والدخول في الإسلام.

فأرسل إلى كسرى الفرس (ايران)، وأرسل إلى إمبراطور الروم (الدولة البيزنطية)، وعظيم القبط (حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم).

وقد جاء في خطاب النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فاني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك اثم الأريسيين، "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (سورة آل عمران)(64)

ويبدو أن النبي ﷺ قصد بالأريسيين هنا الأقباط المسيحيين الذين كانوا على مذهب أريوس.

على أي حال استقبل المقوقس رسول النبي ورسالته استقبالًا حسنًا، وأجابه بكتاب جاء فيه:

"إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط في مصر. سلام: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقى وكنت أظن أنه يبعث من الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من جزيرة العرب في أرض جدب وبؤس والقبط لاتطاوعني في اتباعه".

وأرسل المقوقس للرسول هدية تشتمل على كسوة وبغلة بسرجها وجاريتان، أحدهما مارية التي أنجب منها النبي ﷺ ولده ابراهيم، والأخرى شيرين أهداها الرسول إلى شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه فأنجب منها عبد الرحمن.[1]

وفي شهر ربيع الأول للعام الحادي عشر من الهجرة توفي النبي بعد أن أوصى بمصر وأهلها خيرًا مبشرًا بفتحها القريب، وبوفاته، استحدث المسلمون نظاما جديدًا في الحكم قائم على الشورى عرف باسم (الخلافة الإسلامية).

وقد اجتمع أهل العلم على تسمية الفترة التاريخية التي أعقبت

1- (1) مصر الإسلامية – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف الفقي –ص10

وفـاة النبـي ﷺوحتـى وفـاة ربيبـه وابـن عمـه علـي بـن أبـي طالـب كـرم الله وجهـه، في العـام الأربعين من الـهجرة بـاسم الخلافـة الراشدة.

وقـد تـوالى على منصب الخليفة في هـذه الفتـرة أربـعـة من خيـر أصحاب الرسولﷺوالذين بشروا بالجنة، وهم على الترتيب:

1. أبو بكر الصديق (11–13هـجرية)
2. عمر بن الخطاب (13–23هـجرية) وقد شهد عصره فتح مصر
3. عثمان بن عفان (23–35هـجرية)
4. علي بن أبي طالب (35–40هـجرية)

أمـا عن عصر الخليفة الصديق، فقد انشغل بتثبيت أركان الدولة، ومحـاربة القبـائل التي ارتدت عن الإسلام بـالإضـافة إلى قِصر فترة خلافته، لذلك لم تصل الفتوحـات الإسلاميـة في عصره إلى مصر.

- **فتح مصر 641م:**

اهتم المسلمون بفتح مصر لعدة أسباب لعل أهمها، هي:

1. موقـع مصر الاستراتيجي، حيث أن السيطرة عليـها يتيح لـهم تـأمين فتوحـاتـهم في الشام، وكذلك نشر الإسلام في ساحل القـارة الإفريقيـة الشمـالي المطل على البحر المتوسط، ومنـه إلى كل القـارة الإفريقيـة.
2. وفرة الموارد الاقتصـاديـة في مصر وأهمـهـا نـهر النيل وتربتـهـا

الخصبة الصالحة للزراعة، وغيرها من موارد.

3. تحكم مصر في طرق تجارية مهمة بين الشرق والغرب.
4. القهر والظلم الذي كان يعاني منه الشعب المصري من قبل الحكام الرومان.

استغل القائد المسلم عمرو بن العاص السهمي (أحد القادة الذين ساهموا في فتوحات الشام) فرصة وجود الخليفة عمر بن الخطاب في الشام وعرض عليه أمر فتح مصر، إلَّا أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد في بادئ الأمر حتى لا يفتح جبهة جديدة للقتال مع الروم بالإضافة لانشغال جزء كبير من جيش الدولة الإسلامية في قتال الفرس شرقا.

إلَّا أن عمرو بن العاص ألح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وظل يبين له أهمية ذلك، حتى رضي الخليفة وأمده بجيش قوامه بين الثلاثة والأربعة آلاف مقاتل.

أما عن خط سير الجيش الإسلامي الفاتح لمصر من جهة الشرق فكان على النحو التالي:

- في 18 هجرية الموافق 639م استطاع عمرو بن العاص فتح العريش دون مقاومة في أوائل ذي الحجة في عيد الأضحى.
- واصل عمرو بن العاص الزحف حتى وصل إلى محل يقال له الفرما، وهو المعروف الآن بمدينة بورسعيد، وقد لقى مساعدة

عظيمة من القبط الذين أرادوا مساعدة العرب لهم في التخلص من ظلم الروم.

- اتجه عمرو بن العاص إلى بلبيس بالشرقية، وهزم القائد البيزنطي الشهير (أرطبون) حتى استولى على كل بلبيس في أقل من شهر، ويقال أنه وجد ابنة المقوقس في بلبيس فأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة.
- بعد أن جاءت الإمدادات، اتجه عمرو بن العاص إلى قرية يقال لها أم دنين (الأزبكية) واستولى عليها، ثم واصل زحفه إلى حصن بابليون الذي مازال له آثار في حي مصر القديمة إلى يومنا هذا.
- ظل حصار الحصن أسابيع طويلة حتى سقط الحصن واستسلم للمسلمين، ثم واصل عمرو بن العاص الفتح حتى أتم فتح الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الحين، ثم الدلتا والصعيد.

ومن الجدير بالذكر أن الأقباط في مصر كانوا خير عون للمسلمين الفاتحين ضد المحتل البيزنطي الغاصب، وعلى أي حال أصبحت مصر ولاية إسلامية، وبمرور الزمن دخل المصريون في الإسلام، واندمجوا في الثقافة العربية.

الفصل الثانى

بداية عصر الولاة فى مصر

باتمام الفتح الإسلامي لمصر عام 642م، أصبحت مصر جزءًا مهما من كيان الدولة الإسلامية، وأقبل الأقباط على اعتناق الإسلام، وتوالت الهجرات العربية إلى مصر، واتخذت مصر طابعًا مميزًا لها عن سائر الولايات الإسلامية، حيث اندمج الأقباط والمسلمين اندماجًا رائعًا جعل لمصر مكانة مميزة في قلوب المسلمين.

على أي حال فإن فتح مصر تم في عهد الخليفة الراشد الثاني (عمر بن الخطاب)، والذي بدأت الدولة الإسلامية تتخذ في عهده شكل الدولة بمفهومها من حيث المؤسسات المختلفة والمتخصصة التي تدير الدولة وترعى شئونها، كما قام الخليفة عمر بن الخطاب باستحداث العديد من الأنظمة الإدارية والتي كانت ضرورية مع

اتساع الدولة الإسلامية، وذلك لإحكام السيطرة على الدولة شاسعة المساحة ومتعددة الأعراق.

من أهم التنظيمات الإدارية للخليفة عمر بن الخطاب رضي **الله** عنه، هو تقسيم الدولة الإسلامية إلى ولايات، وعلى كل ولاية وال يعين من قبل الخليفة يقوم على إدارة شئون الولاية من خلال تنفيذ أوامر وتوجيهات الخليفة، وكانت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية كما كانت في عصر النبي ﷺوخليفته الصديق، واستمر نظام الولاية معمولا به فيما تلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من خلفاء وعصور إسلامية مختلفة، مع بعض الاختلافات والتي ستتضح معنا في الفصول القادمة.

وقد حكم مصر في عصر الولاة الذي يمتد من الفتح العربي الإسلامي إلى قيام الدولة الطولونية في مصر حوالي 65 أو 66 واليًا، أولهم فاتح مصر عمرو بن العاص، وأربعةعشر من بني هاشم، وعشرة من قريش، وأربعون من الموالي.[1]

وكان للوالي في مصر إختصاصات الخليفة من حماية الولاية والناس، ومباشرة شئونهم الدينية وجمع الضرائب والانفاق منها

1- أ.د. عصام الدين عبد الرءوف - المرجع السابق - ص51

على الولاية، وإرسال الفائض إلى بيت مال المسلمين في المدينة المنورة.

• أشهر ولاة مصر

عمرو بن العاص:

بعد إتمام فتح مصر، قام الخليفة عمر بن الخطاب بتعيين القائد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وتعتبر هذه الولاية هي ولايته الأولى على مصر، والتي انتهت فترتها بإستشهاد الخليفة عمر بن الخطاب عام 23هجرية.

قام عمرو بن العاص بالعديد من الأعمال المهمة خلال فترة ولايته الأولى على مصر، كان أهمها حرصه على نشر الإسلام بين المصريين بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يجبر أحد على الدخول في الإسلام.

كان عمرو بن العاص له علاقة قوية بالمصريين، حيث كثيرًا ما قد أتى إليها متاجرًا قبل الإسلام.

بنى جامعه والذي يعرف باسمه حتى يومنا هذا في حي مصر القديمة، وهو يعتبر أول جامع كبير في مصر، بل وفي قارة أفريقيا كلها.

اهتم بالزراعة باعتبارها أهم مورد إقتصادي في مصر، وأقام مقياسًا على النيل لتقدير منسوب المياه.

أما عن عاصمة الولاية، فقد أراد عمرو بن العاص اتخاذ مدينة الإسكندرية عاصمة لولاية مصر، وأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، إلَّا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رفض حتى لا يكون بينه وبين المسلمين في مصر ماء، كما أن موقع الإسكندرية على البحر المتوسط يجعلها مطمعًا لهجمات الدولة البيزنطية المتكررة.

قرر عمرو بن العاص إقامة عاصمة جديدة لمصر، ووقع اختياره على منطقة قريبة من حي مصر القديمة، وأطلق عليه الفسطاط أي الخيمة أو المعسكر نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص بها.

قام عمرو بن العاص كذلك بإعادة حفر القناة القديمة للمصريين القدماء زمن سنوسرت الثالث والتي كانت تسمى سيزوستريس، وأطلق عليها خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وهي قناة تربط البحر الأحمر بنهر النيل ومن ثم البحر المتوسط، وكان لها فوائد تجارية عظيمة، إلَّا أن الغرض الرئيس من حفرها كان تسهيل الاتصال بين عاصمة الخلافة في المدينة من جهة وبين الفسطاط في مصر من جهة أخرى.

لم تكن الفسطاط المدينة الوحيدة التي شيدها عمرو بن العاص

في مصر، حيث قام ببناء مدينة الجيزة والتي تعني الناحية أو الجانب، وجمعها جيز، والجيز جانب الوادي، والجيزة اسم لقرية بجانب النيل من ناحية الغرب تجاه الفسطاط، اتسعت حاليا لتكون واحدة من أكبر محافظات مصر.

عبد اللّه بن أبي السرح:

عهد عمر بن الخطاب في أواخر أيامه بولاية صعيد مصر إلى عبد الله بن أبي السرح، وبذلك تضاءل نفوذ عمرو بن العاص في مصر، فلم يعد يحكمها كلها، إنما حكم قسمًا منها، فلما توفي عمر بن الخطاب سنة 23هجرية، وخلفه عثمان بن عفان، ضم الأخير ولاية مصر كلها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعزل عمرو بن العاص، وبهذا انتهت فترة ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر والتي استمرت أربع سنين وعدة أشهر.

ويعتبر عبد الله بن أبي السرح من أشهر الأبطال العرب والمسلمين الذين حققوا انتصارات جليلة على الروم، وأصبحت مصر في عهده مركزًا لانطلاق الفتوحات غربًا وجنوبًا، وحقق المسلمون في عهده أول وأهم الانتصارات البحرية في تاريخ الدولة الإسلامية، وكان ذلك في معركة ذات الصواري في البحر المتوسط عام 34هجرية.

معركة ذات الصواري 34 هجرية:

هي أول معركة بحرية للأسطول الإسلامي، وكانت ضد أسطول الروم البيزنطيين، ويبدو أن القتال في بدايته كان تراشقًا بالنبال والنشاب، فلما نفدت السهام اقتتل الفريقان بالحجارة، واتخذ المسلمون خطة حربية قوية، فربطوا سفنهم بالسلاسل مما جعل اختراق سفن الروم لصفوفهم أمرًا صعبًا.

في نفس الوقت استخدم العرب خطاطيف طويلة كانوا يقذفونها على سفن العدو، فيصيبون بها صواريهم ثم يجرونها إلى جوار سفنهم، فأصبحت المعركة وكأنها معركة برية، وكان النصر حيلف الأسطول الإسلامي.

من المعارك المشهورة التي انتصر فيها عبد الله بن سعد أيضًا معركة سبيطلة، كما اتجه بالفتوحات جنوبًا حتى وصل دنقلة وأخضع النوبة إلى نفوذ الدولة الإسلامية.

أما عن سياسة عبد الله بن أبي السرح الداخلية في مصر، فيبدو أنها لم تسد الفراغ الذي تركه عزل عمرو بن العاص، واشتد بن أبي السرح في جمع الضرائب، مما كان له أثر كبير في انضمام أهل مصر إلى حركة المعارضة التي كانت ضد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهي ما عرفت باسم الفتنة الكبرى.

الفصل الثالث

مصر فى عصر الفتنة الكبرى

تعتبر الفتنة الكبرى التي وقعت بين المسلمين في عصر الخليفة عثمان بن عفان، نقطة فارقة في تاريخ الأمة الإسلامية ومازال مجال البحث فيها مفتوحًا لم يغلق ولن يغلق إلى قيام الساعة.

نالت تلك الفتنة من مصر كما نالت من كل ولايات الدولة الإسلامية، وكانت سببًا في انقسام الأمة الإسلامية وتمزيقها.

باختصار شديد فإن أعداء الإسلام أدركوا استحالة الكيد له من خارجه، فعزموا على الكيد له من داخله وتمزيق أمته الواحدة، فقد خرج رجلًا يهوديًا من صنعاء باليمن هو عبد الله بن سبأ، وأعلن إسلامه فجأة، وأظهر غيرةً شديدةً على الإسلام والمسلمين، والإسلام منه برئ واستطاع أن يقلب الناس على الخليفة عثمان بن عفان.

وقبل أن نرى كيف نالت هذه الفتنة من مصر باعتبارها واحدةً من أهم الولايات الإسلامية، فعلينا أن نذكر بقوله تعالى:

"وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (التوبة) (١٠٠)

فلا أحد أطيب من الصحابة، ولا أخلص لدين الله ورسوله مثلهم، فرضي الله عنهم وعمن سار على نهجهم إلى يوم الدين، وقد ذكر الحافظ بن كثير في تفسيره:

"يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.........»

الى أن قال:

> **" فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم – أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة "[1]**

1– تفسير ابن كثير (2/370)

وقال القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى:

" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الحجرات)(9)

" لايجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع له، اذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألّا نذكرهم إلّا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم "

على أي حال فإن رأس الأفعى وأساس الفتنة عبدالله بن سبأ، لما لم يجد استجابة لدعوته المنادية بعزل عثمان من الخلافة في الجزيرة العربية، قرر أن ينتقل إلى مصر، ووجد فيها أرضا خصبة لنشر دعوته واتخذها قاعدة لنشر دعوته في البلاد الإسلامية، وانتعشت دعوة ابن سبأ في مصر، وانضم إليها الكثير من المصريين، وتوالت الأحداث حتى اجتمع عدد كبير من أتباعه في المدينة حول بيت الخليفة عثمان بن عفان قادمين من مصر والبصرة والكوفة حتى استشهد عثمان.

آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، إلّا أن معاوية بن أبي سفيان والي الشام رفض أن يبايع عليا بالخلافة، وكانت ذريعته المطالبة بدم عثمان بن عفان، وقد تبعه في ذلك عمرو بن العاص والذي يبدو أنه رغب في العودة إلى ولاية مصر.

قام الإمام علي بن أبي طالب بتنصيب محمد بن أبي حذيفة واليا على مصر وطرد منها عبد الله بن سعد بن أبي السرح فلما علم معاوية بن أبي سفيان بانضمام مصر إلى الخلافة الشرعية وأضحت لأمر أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، تطلع معاوية إلى ضمها لملكه فسار مع عمرو بن العاص إلى مصر وأخرج منها محمد بن أبي حذيفة.

عهد بعد ذلك الإمام علي بن أبي طالب إلى قيس بن سعد بن عبادة بحكم مصر والذي حكم بالعدل وسار في الناس سيرة حسنة،إلّا أن الإمام علي قام بعزله لما علم عنه من مهادنة معاوية، ثم ولى مصر محمد بن أبي بكر الصديق، إلّا أن الناس استخفوا به، فعهد الإمام علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي بولاية مصر والذي لم يصل إليها ومات مسموما على أبوابها بفعل سم دس له في الطعام، فاضطر الإمام علي إلى ابقاء محمد بن أبي بكر في ولاية مصر.

استطاع فريق معاوية بن أبي سفيان هزيمة محمد بن أبي بكر وانتزاع ولاية مصر من دولة الخلافة التي يحكمها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والذي استشهد سنة 40 من الهجرة على يد أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم.

باستشهاد الإمام علي بن أبي طالب انتهى عصر الخلافة الراشدة، وبدأت الدولة الإسلامية عصرا جديدًا عرف باسم الدولة الأموية نسبة إلى نسب مؤسسها معاوية بن أبي سفيان وحكامها من بعده، ومع بداية عصر الدولة الأموية، عاد عمرو بن العاص واليا على مصر، وتعتبر هذه هي ولايته الثانية على مصر، ليبدأ عصر مصر في ظل حكم بني أمية.

الباب السابع
مصر فى عصر الدولى الأموية

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ الدولة الأموية

عرفنا في الباب السابق أن الإمام علي بن أبي طالب قد استشهد في عام 40 هـ على يد أحد الخوارج (عبد الرحمن بن ملجم)، وما لبث أهل العراق وبعض الأمصار الإسلامية أن بايعوا الإمام الحسن بن علي بالخلافة، إلَّا أن موقف معاوية ومن معه من الإمام الحسن كان كموقفهم من أبيه، ولم يقبلوا بيعته بل عزموا على محاربته.

كان يعرف عن الإمام الحسن أنه يكره الفتن والسيف، حتى قيل أنه كان قد طلب من أبيه القعود عن الحرب، كما أنه رضي **الله** عنه أراد أن يخمد الفتنة التي طالت يدها من كبار الصحابة، ويبدو كذلك أنه فقد الثقة في أهل الكوفة.

خطب الحسن في أهل الكوفة قائلاً :

" كنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبتم اليوم ودنياكم أمام دينكم...... إلَّا وان معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإذا أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الله عز وجل بظبا السيوف، فإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا "

فناداه الناس من كل جانب:

"البقية البقية، فأمضي الصلح "[1]

على أي حال فقد آثر الإمام الحسن بن علي الصلح مع معاوية حقنا لدماء المسلمين، وتنازل عن الخلافة سنة إحدى وأربعين هجرية، ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس بالخلافة ليكون أول خلفاء الدولة الأموية، وبهذا اعتبر معاوية من كبار مؤسسي الدول على مدار التاريخ الإسلامي.

استمر حكم الدولة الأموية منذ نشأتها على يد معاوية عام 41هـ أكثر من 90 عام، تولى الخلافة خلالها 14 خليفة كلهم من بني أمية، لذا عرفت بالدولة الأموية.

اتخذت الدولة الأموية من دمشق عاصمة لها منذ معاوية بن أبي

١- ابن الأثير : الكامل ص20

سفيان، حيث نقل معاوية إليها مقر الخلافة ليكون بين مؤيديه، وبعيدًا عن أنصار بني هاشم في شبه الجزيرة العربية والعراق

أما آخر خلفاء الدولة الأموية، فهو مروان بن محمد والذي انهزم أمام عبد الله بن علي العباسي في موقعة نهر الزاب فهرب إلى مصر.

بعد هروب مروان بن محمد إلى مصر، تعقبه صالح بن علي، وقتله عند قرية بوصير في صعيد مصر 132هـ، وبذلك انتهت الدولة الأموية والتي كانت تعرف بالدولة العربية لاعتمادها على العنصر العربي اعتمادًا أساسيًا، وحلت محلها الدولة العباسية التي تقهقرت فيها مكانة العرب، وتقدم عليهم الموالي من الفرس ثم الأتراك.

الفصل الثانى

أشهر ولاة مصر فى العصر الأموى

قد سلف الذكر أن عمرو بن العاص قد تم عزله عن ولاية مصر في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وظل معزولًا عنها حتى سيطر معاوية بن أبي سفيان على مقاليد الحكم وأعلن قيام الدولة الأموية، فأعاد تعيين عمرو بن العاص واليًا على مصر، وتعتبر هذه الولاية هي ولايته الثانية على مصر.

ويبدو أن معاوية كان قد وعده نظير مساندته في حربه ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يعطيه مصر طعمة يحكمها.

ظل عمرو بن العاص يحكم مصر منذ 40 هـ حتى وفاته 43هـ/633م، وكانت فترة ولايته الثانية أصعب من الأولى، حيث كان قد أصابه كبر السن ولم يعد هذا الشاب مثلما ذي قبل، إلَّا

أنه استطاع أن يقضي على الفتن بين عرب مصر والتي كانت أثرًا طبيعيًا للفتنة بين معاوية وعلي رضي الله عنه.

بعد وفاة عمرو بن العاص، عهد معاوية بولاية مصر إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، ولما توفي معاوية بن أبي سفيان وخلفه في الحكم ابنه يزيد، أبقى على مسلمة بن مخلد الأنصاري واليا على مصر.

وقد شهدت فترة ولاية مسلمة على مصر حدثًا عظيمًا اهتزت له أركان الدولة الإسلامية من شرقها إلى غربها، ألا وهو استشهاد الإمام الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء، واستشهد معه معظم رجالات آل بيت النبوة، ومن بقي منهم على قيد الحياة بالإضافة إلى نساء آل البيت عليهم السلام أجبروا على الانتقال إلى عدة مدن حتى انتهى بهم المطاف في مصر.

استقبل مسلمة بن مخلد والي مصر السيدة (أم هاشم) زينب بنت علي عليها السلام وأنزلها بداره وهو المعروف بمسجد السيدة زينب الآن.

تُوفي مسلمة بن مخلد الأنصاري عام 62هـ بعد أن ولي مصر خمسة عشر عامًا.

من أشهر ولاة مصر في العصر الأموي أيضا، عبد العزيز بن مروان الذي تولى ولاية مصر في عهد أبيه مروان بن الحكم الخليفة الأموي، كما أقره أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان على منصبه.

حكم عبد العزيز بن مروان مصر واحدًا وعشرين سنة (65–86)هـ، واشتهر عصره بالرخاء والعدل وأحبه أهل مصر، وهو الذي قام ببناء مدينة حلوان واتخذها عاصمة لمصر بدلًا من الفسطاط.

وعلى الرغم من أن خراج مصر كله كان يؤول لعبد العزيز بن مروان، إلَّا أنه لم يدخر مالا لنفسه، وإنما أنفق ما حصل عليه من مال على أهل مصر وإصلاح البلاد، ولم يترك عند وفاته سوى سبعة آلاف دينار، عدا بعض أملاك في حلوان وعددًا من الخيل والرقيق، لذلك أحبه أهل مصر ورضوا عن ولايته.[1]

بعد وفاة عبد العزيز بن مروان، تولى عبد الله بن عبد الملك حكم مصر وكان ذلك في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وهو أخيه، وقد عمل والي مصر الجديد على تنفيذ خطة الدولة الأموية في تعريب الدواوين، فعربت في عهده الدواوين في مصر، أي أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية المستخدمة في الكتابة

1– مصر الإسلامية – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف الفقي –ص 62

والتدوين لدواوين الدولة في مصر وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية.

بعد وفاة عبد اللّه بن عبد الملك، توالى على حكم مصر العديد من الولاة التابعين للدولة الأموية حتى سقطت في 132هـ، وأشهرهم:

- قرة بن شريك
- أيوب بن شرحبيل
- بشر بن صفوان
- عقبة بن مسلم التجيبي
- حفص بن الوليد

مع مرور السنوات ضعفت الدولة الأموية لعوامل كثيرة وانعكس بالطبع ضعف الخلافة الأموية على الولايات التابعة لها، وتميزت فترة الوالي بالقصِر.

في المقابل قويت الدعوة العباسية وكثر أنصارها، وأعلن أبو العباس السفاح قيام الدولة العباسية في الكوفة وبويع كأول خليفة للدولة العباسية، وتوالت الأحداث حتى سقطت دولة بني أمية بعد هزيمتهم أمام الجند العباسي في معركة الزاب، وتبعه مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية.

ومن ثم انتهى عصر مصر الأموية، وبدأت فترة تاريخية جديدة

بها الكثير من المستحدثات والمستجدات المهمة التي أثرت بوضوح في تاريخ مصر، مصر في العصر العباسي.

الباب الثامن

مصر فى العصر العباسى الأول

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ الدولة العباسية

ينسب العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ﷺ) وتطلعوا إلى الخلافة في مستهل القرن الثاني الهجري، وفي بداية الدعوة العباسية وانتشارها لم يدع أحد العباسيين إلى نفسه بالخلافة بل كانت الدعوة إلى آل بيت رسول **الله** (ﷺ)، وهذا ما جعل الدعوة العباسية تلقى رواجًا بين الناس في مختلف الولايات الإسلامية في عصر الدولة الأموية.

اعتمدت الدعوة العباسية على الموالي في نشر دعوتهم بشكل كبير، والموالي هم المسلمين من غير العرب كالترك والفرس والأكراد وغيرهم، ويبدو أن الموالي لم يتمتعوا بحقوق كاملة ولم تتم المساواة بينهم وبين العرب في العصر الأموي، وهو ما دفعهم إلى الانضمام للدعوة العباسية المعارضة للحكم الأموي.

على أي حال يمكننا أن نجزم بأن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الموالي من الفرس والأتراك.

بدأ العباسيون العمل ضد الدولة الأموية منذ سنة 127هـ، وتزعم هذا العمل إبراهيم الإمام الذي يرجع إليه الفضل في قيام الدولة العباسية، واتخذ من إقليم خراسان قاعدة للعمل لأن أهلها ناقمون على الأمويين.[1]

تسلم أحد الموالي مقاليد الأمور في خراسان وهو أبو مسلم الخراساني الذي ساعدته الاضطرابات هناك على تحقيق سياسته الرامية إلى السيطرة على هذا الإقليم.

ازدادت الدعوة العباسية، وزادت أعداد المنضمين لها، حتى عزموا على حرب الدولة الأموية وتوالت الأحداث حتى أقبل الناس على أبي العباس يبايعونه بالخلافة، وصعد المنبر في 12ربيع الأول سنة 132هـ، وألقى خطابًا شكر فيه أهل الكوفة، وفاخر بقرابته لرسول **الله**، وأوضح أحقية بيته بالخلافة لنسبه إلى العباس عم الرسول.

كان لابد من أن يتخلص أبو العباس من مروان بن محمد أخر

1– دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص2 أ.د. عصام الدين عبد الرءوف

خلفاء بني أمية حتى ينفرد بحكم الدولة الإسلامية، وبالفعل استطاع هزيمته في معركة قرب نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة) ثم قتله بعد أن فر إلى مصر، معلنا بذلك انتهاء حكم الدولة الأموية وبداية عصر الدولة العباسية.

وقد قسَّم علماء التاريخ فترة الدولة العباسية إلى عصرين، لكل منهما سمات تميزه، فالعصر العباسي الأول كان عصر قوة وازدهار للدولة، استطاع فيه الخلفاء أن يبسطوا نفوذهم على كامل الولايات الإسلامية، وقد استمر هذا العصر حوالي مائة عام من عمر الدولة الذي تجاوز الخمسة قرون.

أما العصر العباسي الثاني فكان عصر الضعف والانهيار، وعاب الخلفاء الضعف والهوان، وسيطر الموالي على مقاليد ومقدرات الدولة حتى انفصلت بعض الولايات عن كيان الدولة مكونة ما عرف بالدول المستقلة.

بطبيعة الحال، لم تكن مصر بعيدة عن هذه التغيرات، فقد تحولت مصر من ولاية أموية إلى ولاية عباسية كسائر الولايات الإسلامية.

الفصل الثانى

مصر فى العصر العباسى الأول

لم يختلف نظام الحكم في العصر العباسي الأول كثيرًا عنه في العصر الأموي، حيث ظل الخليفة يدير شئون الدولة كلها من العاصمة (الكوفة ثم الأنبار ثم بغداد)، ويولي الولاة على الولايات الإسلامية المختلفة.

كان صالح بن علي العباسي أهم الولاة العباسيين في مصر وأشهرهم، وقد عمل على تثبيت أركان الدولة العباسية في مصر والقضاء على جيوب المقاومة الأموية والتي انتشرت بشكل كبير في مصر خاصة في الصعيد.

من أهم أعمال صالح بن علي في مصر أنه قام ببناء مدينة جديدة، لتكون عاصمة لولاية مصر والتي عرفت باسم مدينة العسكر، ويبدو ان اسمها قد ارتبط بعساكره وجنوده ودورهم في

تخطيطها وبنائها، وهي جزء من مدينة القاهرة الحالية.

وقد توالى الولاة على مصر من قبل الدولة العباسية، ومنهم إبراهيم بن صالح، وموسى بن مصعب بن الربيع الخثمعي وعسامة بن عمرو، ثم الفضل بن صالح بن علي.

من الولاة العباسيين على مصر أيضًا حميد بن قحطبة، ويزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، ويزيد بن عبد **الله**.

على أي حال فإن كل ولاة مصر في العصر العباسي الأول قد واجهوا القلاقل والفتن والثورات في مصر، سواء كانت من الأمويين أو العلويين، ويبدو أن الشعب المصري كان متعاطفًا مع هذه الثورات خاصة الثورات العلوية منها، لاسيما وأن الشعب المصري أحب آل بيت رسول **الله** وتعلق بهم.

يمكن القول أن الحال استمر على ذلك حتى آلت ولاية مصر إلى أحمد بن طولون، والذي مالبثت أن استقرت له الأمور في مصر، إلَّا وأعلن قيام الدولة المستقلة الأولى في مصر في العصر الإسلامي، وقد عرفت هذه الدولة باسمه.... الدولة الطولونية.

الباب التاسع

مصر فى العصر العباسى الثانى

(الدول المستقلة)

الفصل الأول

نبذة عن العصر العباسى الثانى وظهور الدولة المستقلة

استمرت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية حتى بداية العصر العباسي الثاني حيث بدأ الضعف يدب في الخلافة العباسية مما ساعد على ظهور ماعرف بالدول المستقلة في مصر وغيرها من الولايات الإسلامية.

ويمكن أن نرجع ذلك إلى سببين رئيسيين، وهما:

1. ضعف الخلفاء في العصر العباسي الثاني
2. استعانة الخلفاء العباسيون بالموالي كالفرس والترك.

نفهم من ذلك أن مصر ظلت ولاية عباسية تابعة للحكم المباشر للخلافة العباسية في الفترة بين 132هـ وحتى 254هـ وهو تاريخ قيام الدولة الطولونية في مصر، ثم توالت الدول المستقلة في مصر حتى دخول سليم الأول مصر عام 1517م وضم مصر إلى الدولة العثمانية.

ويمكن تتبع ترتيب الدول المستقلة التي قامت في مصر في العصر العباسي الثاني من خلال الجدول التالي:

الدولة	فترة حكمها
الطولونية	254هـ – 292هـ
الحكم العباسي المباشر	292هـ – 323هـ
الإخشيدية	323هـ – 358هـ
الفاطمية	358هـ – 567هـ
الأيوبية	567هـ – 648هـ
المملوكية	648هـ – 923هـ

وكان استقلال هذه الدول عن الدولة العباسية له شكلان:

- **الأول**: الاستقلال بمصر وخراجها وجيشها مع الاحتفاظ بالتبعية للخليفة العباسي اسمًا فقط.
- **الثاني**: الاستقلال عن الدولة العباسية تمامًا والخروج عن تبعية الخليفة العباسي نهائيًا وسنتناول في فصول هذا الباب كل دولة منها بإيجاز غير مخل.

الفصل الثانى

الدولة الطولونية (254هـ-292هـ)

• أحمد بن طولون:

تُنسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها أحمد بن طولون، وهو تركي الأصل، تدرج في المناصب وخدمته الظروف حتى أصبح من أهم جند الخلافة وأكثرهم ثقة عند الخليفة العباسي المستعين ومن بعده الخليفة المعتز.

والمتعارف عليه أن الخليفة كان يعين واليًا على كل ولاية، إلَّا أن هذه الفترة قد استحدث فيها أمرًا جديدًا عند الولاة اذ كان كل وال يفضل البقاء في سامراء جوار الخلافة ويرسل من ينوب عنه في إدارة الولاية.

كان باكباك واليًا على مصر من قبل الخليفة العباسي، وهو تركي الأصل أيضا، ويبدو أن علاقة قرابة قد جمعت بين باكباك

وأحمد بن طولون، حيث تزوج باكباك من أم أحمد بن طولون، وعلى أي حال، فقد قام باكباك بإرسال أحمد بن طولون لينوب عنه في حكم مصر وضم إليه الجيش.

وصل أحمد بن طولون إلى مصر في رمضان 254هـ، ومن ضمن الظروف التي خدمت أحمد بن طولون في مصر، أن مكانته وقوته قد زادت في مصر بعد وفاة الخليفة المعتز العباسي وتولية المهدي الذي كان ناقمًا بدوره على باكباك فعزله وعهد إلى يارجوخ بحكم مصر، وصب ذلك في مصلحة ابن طولون حيث كان في علاقة مصاهرة مع يارجوخ فزوجة أحمد بن طولون هي ابنة ليارجوخ، وبذلك أصبح يارجوخ أكبر عون لأحمد بن طولون في مصر.

استطاع أحمد بن طولون التصدي لكل العناصر التي حاولت النيل منه وهزم كل معارضيه في مصر واستطاع أن يضم الشام وبرقة وغيرها إلى حكم الدولة الطولونية.

أما عن أهم أعمال أحمد بن طولون في مصر، فقد قام ببناء حاضرة جديدة لمصر بعد أن ازدحمت الفسطاط ولم تعد تتسع لجنده الترك، وسار أحمد بن طولون على نفس سياسة أسلافه في أن تكون عاصمة مصر في الموضع الذي يقع بين الوجهين البحري

والقبلي، فقام أحمد بن طولون ببناء مدينة القطائع بجوار المقطم حيث تتسع لجنده، ولتجديد شخصية مصر بعد أن قامت فيها دولة تسيطر على بعض ولايات الدولة العباسية مثل الشام والثغور الشامية وبرقة وطرابلس والحجاز.

ويبدو ان اسم القطائع مشتق من قطعة، حيث قسمها ابن طولون إلى قطع لتقيم كل طائفة في إحداها.

شيَّد أحمد بن طولون قصرا ضخما في القطائع، وبما ان العاصمة الجديدة لايكتمل بناؤها في الدولة الإسلامية بدون مسجد جامع، فقام ابن طولون ببناء الجامع الكبير الذي يعرف باسمه ولايزال قائما حتى اليوم، ويمتاز عن غيره من الجوامع بالمأذنة ذات السلالم الخارجية.

وفي سنة 270هـ اشتد المرض على أحمد بن طولون حتى تُوفى، وكانت ولاية عهده لابنه خمارويه من بعده.

• خمارويه بن أحمد بن طولون:

تَّولى خمارويه حكم مصر خلفًا لأبيه أحمد بن طولون، وكانت أمور الدولة مستقرة وخزائنها ممتلئة.

حاول الخليفة العباسي المعتضد استعادة السيطرة على مصر

مرة أخرى إلَّا أن خمارويه استطاع هزيمته، والحفاظ على دولته كما ورثها من أبيه دون نقصان.

قرر خمارويه أن يطلب الصلح من الخليفة العباسي ويبدو أن الخليفة قد وافق على طلب الصلح لما أدرك قوة خمارويه وتمكنه من إدارة دولته، وأعطى الخليفة مرسومًا بتعيين خمارويه وولده ثلاثين سنة، حكم مصر والشام والثغور.

ولتدعيم العلاقات بين خمارويه من جهة والخليفة المعتضد من جهة أخرى، فقد تزوج الخليفة العباسي من قطر الندى ابنة خمارويه، ومازال حفل زفافهما يضرب به المثل في الفخامة والتكلفة حتى اليوم.

خلاصة القول أن خمارويه كان أميرًا قويًا حافظ على أملاك الدولة الطولونية بل وزاد فيها، كما نجح في تحسين علاقته مع الخليفة العباسي، إلَّا أنه أنفق أموالا طائلة في زواج ابنته قطر الندى من الخليفة العباسي حتى مات وخزائن الدولة شبه خاوية.

كان خمارويه يعيش في ترف ونعيم، فكان يسكن القصر سنة واحدة ويلبس الثوب يوما واحدا، ويركب الحصان شهرًا واحدًا.[1]

1- أ.د. عصام الدين عبد الرءوف – مصر الإسلامية – ص104

عُرِفَ عن خمارويه شغفه بصيد السباع (الأسود)، وأقام لها بيوتًا خاصة، إلَّا أنه لم يكن مثل أبيه في معاملة الرعية، فعرف عنه القسوة عليهم في جمع الأموال أو في إنزال العقوبة بمخالفيه.

بوفاة خمارويه سنة 292هـ، تدهورت أحوال الدولة الطولونية، وحكم البلاد هارون بن خمارويه، فاستصغره الجند وقرروا خلعه ومبايعة أخيه ربيعة، إلَّا أن حركتهم فشلت.

مع هذا الاضطراب وجد الخليفة العباسي الفرصة سانحة أمامه لاستعادة الحكم العباسي المباشر على مصر مرة أخرى فأرسل إلى مصر جيشًا على رأسه محمد بن سليمان الكاتب الذي استطاع هزيمة الجيش الطولوني وأمر أصحابه بحرق القطائع ونهب الفسطاط، وقد طاف الكاتب بالفسطاط وأطلق سراح من في السجون، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المكتفي أمير المؤمنين، وعهد الكاتب إلى ولاة من قبله بحكم بلاد الشام وولاياتها، وأخرج من الفسطاط ولاة بني طولون ومواليهم فلم يبق في مصر منهم أحد وخلت منهم الديار، وعفت منهم الآثار وخلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل.[1]

1– أ.د.عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص107

أصبح بذلك محمد بن سليمان الكاتب أول والٍ على مصر بعد زوال الدولة الطولونية، ورجوع مصر إلى الحكم العباسي المباشر من جديد.

الفصل الثالث

الدولة الإخشيدية (323هـ- 358هـ)

• محمد بن طغج الإخشيد:

تنسب الدولة الإخشيدية إلى أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين، وجده من ملوك فرغانه ببلاد ما وراء النهر، فهو تركي الأصل.

كان أبوه طغج يعمل لدى الدولة الطولونية، ومات في سجن وزير الدولة العباسية العباس بن الحسن سنة 294هـ، فدخل محمد في خدمة الدولة العباسية وبالتالي كان في خدمة الولاة العباسيين في مصر وهما بسطام ثم تكين.

يبدو أن لقب الإخشيد قد خلعه الخليفة العباسي لمحمد بن طغج لشجاعته في صد الهجمات الفاطمية التي جاءت من الغرب على مصر في هذا الوقت، والإخشيد لقب يعني الملك اشتهر به ملوك فرغانة في بلاد ماوراء النهر.

تطورت الأحداث السياسية في بغداد، وولي القاهر الخلافة، فأرسل إليه الإخشيد يلح عليه بتقليده ولاية مصر، وأرسل له مالا كثيرًا، فوافق القاهر وأصدر تقليدا للإخشيد بولاية مصر بدلا من محمد بن تكين، ودعا له على المنابر إلَّا أن القاهر عاد وأرسل تقليدا بولاية مصر لابن كيغلغ بدلا من الإخشيد.(1)

لم تلبث العلاقات بين الإخشيد وبين الخلافة العباسية أن تحسنت، حيث تزوجت ابنة الإخشيد من أبي الفضل بن جعفر وزير الدولة العباسية، فصدر بعدها تقليد من الخلافة العباسية بعودة محمد بن طغج الإخشيد لحكم مصر.

على أي حال استطاع الإخشيد اعادة الأمن والنظام بعد صد هجمات الفاطميين، واستطاع مد نفوذ دولته حتى شملت مع مصر الشام والحجاز وبرقة، وقد تحسنت في عهده أحوال مصر الاقتصادية، واتخذ من مدينة العسكر حاضرة لدولته.

- **أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد:**

تُوفي الإخشيد سنة 325هـ فبايع أهل مصر ابنه أبو القاسم أنوجور والذي اتسم بالضعف ولم يقدر على إدارة شئون الحكم والامارة.

1- أ.د. عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص111

كان أنوجور يواجه العقبات في حكمه من رجال الدولة، فكان في خلاف دائم مع كافور الذي كان يسعى إلى إضعاف أنوجور ليخلو له الجو ويحكم مصر.

تُوفي أنوجور سنة 394هـ وخلفه أخوه علي بن الإخشيد ففعل معه كافور مثلما فعل مع أخيه من قبل، وتوفي 355هـ ودُفن في بيت المقدس بجوار أبيه وأخيه.

• كافور الإخشيدي:

كان كافور عبدًا أسودًا تولى تربية أبناء الإخشيد وأصبح من كبار قواده، وجعله الإخشيد وصيًا على أبنائه، ويبدو أنه قد شاركهم ملكهم أو انتزعه منهم بالقول الأرجح.

استبد كافور بأمور البلاد بعد وفاة علي بن الإخشيد ودعى باسمه على المنابر، واعترف به الخليفة المطيع وخلع عليه، رغم أنه كان عبدا غير حر سيق من السودان.

كان كافور يتودد إلى الخلافة العباسية، وفي نفس الوقت يتظاهر بالوفاء والإخلاص للدولة الفاطمية في المغرب حتى يضمن الاستقرار في حكمه وعدم الدخول في حرب مع إحدى هاتين الدولتين.

ومما قاله المتنبي في كافور:

من علَّم الأسود المخصي مكرمة؟!　　أقومه البيض أم أبـاؤه السود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة　　عن الجميل فكيف الخصية السود

ونستخلص من البيتين السابقين للمتنبي مدى بغضه على كافور، وإن دل ذلك فيدل على استبداده وظلمه للناس.

على أي حال تُوفي علي بن الإخشيد وتولى الحكم بعده ابنه أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وقد نقص النيل في عهده، وذكر الكندي ان الناس بسبب هذه المجاعات أكلوا الكلاب والقطط، وفي سنة 358هـ، سار جوهر الصقلي إلى مصر وضمها إلى أملاك الدولة الفاطمية التي كانت قد قامت في المغرب معلنا بذلك سقوط الدولة الإخشيدية.

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية فى مصر

• **قيام الدولة الفاطمية في المغرب:**

منذ أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري، أصبحت بلاد المغرب محط اهتمام الشيعة، وكان أهل هذه البلاد اذهانهم مهيأة للاستماع إلى الدعوة لال البيت منذ أن نجح الأدارسة الحسنيين في تكوين دولتهم هناك.

بدأت الدعوة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب على يد أحد الدعاة لها عرف بأبي عبدالله الشيعي، وهو عراقيًا شيعيًا هاجر إلى بلاد المغرب بسبب تضييق الدولة العباسية على المذاهب الشيعية ودعاتها، وكانت بلاد المغرب بعيدة عن سيطرة الدولة العباسية.

ومن المعروف أن الشيعة مذاهب متعددة ولكل مذهب منها إمام مختلف، ويبدو أن أبو عبد الله الشيعي كان على المذهب

الإمامي الإثنى عشري، إلَّا أنه تحول إلى المذهب الإسماعيلي بعد وفاة الإمام محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر للشيعة الامامية، والمذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة الفاطمية.

بعدما استقرت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب، وزاد عدد أنصاره، وأصبحت الأمور مهيئة لقدوم الإمام المنتظر لهذه الفرقة، طلب أبو عبد الله الشيعي من المهدي القدوم إليه حيث أن الأمور قد استقرت.

وصل المهدي إلى أفريقية وتسلم مقاليد الحكم من أبي عبد الله الشيعي وأصبح أول الخلفاء للدولة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب.

أما عن سبب تسمية الدولة بالفاطمية، فيرجع إلى أن مؤسسيها نسبوا أنفسهم إلى نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وأله وسلم)، وزوج الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، والأرجح عندنا هو ما قاله سواد العلماء في هذا النسب، أن نسبهم هذا مشكوك في صحته، حتى أن العزيز بالله بن المعز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إنــا سـمـعـنـا نـسـبـا مـنـكـرا　　يـتـلى عـلى المـنـبر في الـجـامـعِ
إن كـنـت فـيـما تـدعـي صـادقـا　　فـاذكـر أبًـا بعد الأب السابعِ
وإن تــرد تـحـقـيـق مـا قلته　　فانسب لنا نفسك كالطائعِ
أولا دع الأنــســاب مـسـتـورة　　وأدخـل بنا في النسب الـواسـعِ
فـإن أنـسـاب بني هاشم يقصر　　يـقـصر عـنـهـا طـمـع الـطـامـعِ

فـالأدق هو تسمية دولتهم بـالدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة، ولكن اسم الدولة الفـاطمية هو الأشهر على مسامع النـاس .

على أي حال كان المهدي هو أول خلفـاء الدولـة الفـاطمية، وشرع في بنـاء حـاضرة جديدة لدولته لتكون مركزًا للدعوة الشيعية وحصنًا يحتمي بـه الفـاطميون وقت الحـاجة من غضبة أهل المغرب، واختـار عبيد الله المهدي لهـا اسم المهدية نسبةً إلى لقبه، كمـا أن الموقع الذي تم اختيـاره لبنـاء المهدية كـان بعيدًا عن القيروان التـي كـانت تعتبر مركزًا لأهل السنة من المـالكية.

الغزو الفاطمي لمصر:

بعد وفـاة المهدي بويع ابنه القـاسم محمد بـالخلافة والذي تلقب بـالقـائم بـأمر الله، ثم خلفه المنصور بـالله إسماعيل، وبعد وفـاة

المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله أبو تيم، وهو رابع خلفاء الدولة الفاطمية إلَّا أنه أشهرهم، حيث ضمت مصر إلى أملاك الدولة الفاطمية في عهده.

وكان لمصر أهمية كبيرة عند خلفاء الدولة الفاطمية، فمصر دولة غنية بمواردها الاقتصادية، كما أن السيطرة على مصر يسهل للفاطميين السيطرة على الحجاز مما يعطي شرعية كبيرة لخلافتهم.

مصر قلب العالم الإسلامي وصاحبة نفوذ على الحرمين الشريفين منذ العصر الإخشيدي، لذا كانت مصر مهمة للفاطميين، طمعوا فيها منذ تكوين دولتهم في بلاد المغرب.

لم يتوان الفاطميون عن توجيه حملاتهم للاستيلاء على مصر منذ بدء دولتهم حتى أن أول خلفائهم عبيد الله المهدي أرسل إليها أول حملاته بعد نحو أربعة أعوام فقط من تسلمه مقاليد الحكم في أفريقية، ولقد شكلت الحملات الفاطمية على مصر منذ ابتدائها حتى الاستيلاء على مصر موجتين كبيرتين تشتمل كل موجة منها على عدة حملات، وتفصل بينهما فترة توقف اضطراري طالت لأكثر من ربع قرن بسبب انشغال الفاطميين بشئون المغرب، ومع أن الموجة الأولى من هذه الحملات كانت الأطول زمنيًا من الثانية،

فقد كانت أقل فعالية منها، إذ أن الموجة الثانية هي التي حققت أمل الفاطميين المنشود للاستيلاء على مصر.[1]

على أي حال، في سنة 355 هـ أعد المعز لدين الله عدته للاستيلاء على مصر، فأمر بحفر الأبار وتمهيد الطرق وإقامة القصور والمعسكرات على طول الطريق بين أفريقية والإسكندرية، وأسند إلى قائده جوهر الصقلي قيادة الجيش الفاطمي إلى مصر ومنحه كل الدعم.

استطاع جوهر الصقلي الاستيلاء على مصر في رمضان سنة 358هـ، ويبدو أنه لم يجد مقاومة في مصر، حيث هرب جند الإخشيد وأقيمت الدعوة في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ثم سار جوهر إلى مسجد بن طولون وأمر المؤذن باستعمال عبارة (حي على خير العمل) بدلا من (الصلاة خير من النوم)، ثم صار يؤذن بها الأذان في مساجد مصر.[2]

توالت انتصارات الدولة الفاطمية حتى استطاعوا الاستيلاء على كل أراضي الدولة الإخشيدية في مصر وخارجها.

1- صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية ص61 – أ.د. محمد بركات البيلي

2- مصر الإسلامية ص127 – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف

أما عن أحوال مصر وأهلها عند قدوم جوهر الصقلي إليها، فلا أبلغ من قول المقريزي حين قال:

" وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد من قبل مثله بحيث أنه أحصي من مات في أيام يسيره فكانوا ستمائة ألف إنسان، وكانوا يلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج دينارًا والبيضة درهمًا وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا مع كثرة الفتن وتغلب كل أحد من العمال وغيرهم على مايليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية والكافورية، وكثرة تحاسدهم وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر وكانوا قد انتشروا في بلاد الشام فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر، واضطربت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف وكان بمصر جماعة من دعاة المعز فاستمالوا من القواد ووجوه الرعية، وأنفذ إليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم، وأمرهم أن ينشروها اذا قاربت عساكره مصر". [1]

1- المقفى - المقريزي- ترجمة جوهر الصقلي

فمن الواضح أن أحوال مصر قد ساءت في الوقت الذي عجزت الخلافة العباسية عن التدخل لإقالة الإخشيديين أو استرداد مصر منهم، فكانت مصر مُهيأة للغزو الفاطمي من كل الاتجاهات.

بالفعل حقق الفاطميون حلمهم في الاستيلاء على مصر، وكان بطل ذلك قائدهم جوهر، ويمكن أن نؤكد أن وضع مصر قد تغير تمامًا في العصر الفاطمي، حيث تحولت مصر من مجرد ولاية تابعة للخلافة الإسلامية الراشدة ثم الأموية ثم العباسية، أو حتى من كونها دولة مستقلة عن الخلافة كالدولتين الطولونية والإخشيدية، إلى حاضرة خلافة تنافس الخلافة العباسية وتسعى إلى انتزاع زعامة العالم الإسلامي منها.

أما عن تاريخ حكام الدولة الفاطمية في مصر فنوجزه فيما يلي:

جوهر الصقلي 358هـ - 362هـ:

تولى جوهر الصقلي الحكم في مصر نيابةً عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي نحو أربع سنوات، عمل خلالها على التمهيد لنقل المعز وخلافته إلى مصر، وكان من ضمن أعمال جوهر الصقلي المهمة أثناء فترة ولايته على مصر هو بناء مدينة القاهرة، ولم يختر مكانًا جديدًا لحاضرة الدولة الفاطمية الجديدة، فاختار

موقعها في نفس المكان الذي أقيمت فيه العواصم الإسلامية في مصر من قبل.

أقام جوهر قصرًا للخليفة ليكون مقرا لحكم الدولة الفاطمية، كما قام ببناء المسجد الجامع والذي عُرِفَ باسم الجامع الأزهر والذي سُمْيَّ بذلك نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي (صلى الله عليه وأله وسلم)، والتي يرفع الفاطميون نسبهم إليها.

شرع جوهر الصقلي في مجموعة من الإجراءات الدينية لتحويل هوية الشعب المصري السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي اعتنقته الدولة الفاطمية، وقد بدأ ذلك بإفطاره من صوم رمضان على عدد بغير رؤية، وصلى صلاة العيد بمصلى القاهرة قبل أهل مصر بيوم.

وفي يوم الجمعة 8ذو القعدة 358هـ / 969م زاد في الخطبة " الصلاة على علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين وعلى الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهاديين ".

ومن الواضح أن جوهر الصقلي لم يلتزم بالأمان الذي أعطاه لأهل مصر بألَّا يعارض مذهبهم السني.

المعز لدين الله الفاطمي:

دخل المعز لدين الله قصره في القاهرة في رمضان 362هـ / 973م، وتسلم مقاليد الأمور من جوهر الصقلي وترتب على ذلك تغيرا خطيرا لمصر والعالم الإسلامي أجمع،

اذ تحولت مصر من مجرد دار إمـارة إلى دار خلافة (وإن لم تصح هذه الخلافة)، وأصبحت هي مقر ومركز الخلافة الفاطمية والقاهرة هي حاضرة الخلافة الفاطمية.

بعد أن بسط جوهر الصقلي نفوذ الدولة الفاطمية في الشام تطلع المعز لدين الله إلى الحجاز وقد امتد نفوذه إلى الحجاز تلقائيًا، اذ بادر أشراف الحجاز العلويين إلى إعلان الولاء والبيعة له بعد سقوط الدولة الإخشيدية والتي كانت صاحبة النفوذ عليهم.

على هذا النحو فالمعز لدين الله هو رابع خلفاء الدولة الفاطمية بوجه عام، وأول خلفائها في مصر، ولم تستمر خلافته طويلا حيث توفي 365هـ وتولى ابنه العزيز بالله بعده الخلافة.

خلفاء المعز لدين الله في مصر:

تَولى العزيز بالله الخلافة في مصر بعد وفاة أبيه المعز لدين الله، رغم أنه لم يكن أكبر أبنائه، وقد استكمل العزيز بالله ما بدأه المعز

من تثبيت لأركان الدولة الفاطمية في مصر وساعده في ذلك القائد جوهر الصقلي، وقد اعتبر البعض عصر العزيز بالله أزهى عصور الفاطميين في مصر، إذ كانت خلافته فترة رخاء وعلم وتسامح ديني.

تُوفِيّ العزيز بالله وبويع لولده أبو علي بن العزيز بالخلافة سنة 386هـ وتلقب بالحاكم بأمر الله وكان عمره حينذاك قد بلغ احدى عشر سنة ونصف، فتولى الوصاية عليه أستاذه ومربيه برجوان الخادم.

ظل برجوان الخادم متحكمًا في أمور الدولة حتى سنة 395هـ حتى تخلص منه الحاكم بأمر الله وانفرد بأمور الدولة، وعرف عن الحاكم بأمر الله تعصبه لمذهبه الشيعي، واضطهاده للشعب المصري السني المذهب، كذلك تشدد مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود.

كان للحاكم أمور غريبة في الحكم، فمنها منع التجول ليلًا والجلوس في الحوانيت، وكذلك منع ذبح الأبقار ومنع النساء الخروج من بيوتهن، والأغرب من ذلك أنه منع أكل السمك الذي لاقشر له (القرموط)، كما حرم أكل الملوخية وبرر ذلك بأن معاوية

بن أبي سفيان كان يميل إليها، كما حرم أكل الجرجير، إلَّا أنه يحسب لها أنه أقام دار الحكمة سنة 395هـ.

على أي حال قتل الحاكم بأمر الله في 411هـ، واختلفت الروايات فيمن قتله، وكيف قتله؟ وأين قتله ؟، لكن الثابت لدينا أنه قتل ومات سره معه.

وقد ظهر في عهده طائفة تعرف بالدروز تعتقد في ألوهية الحاكم بأمر الله ويؤمنوا بأنه اختفى ولم يقتل وأنه سيرجع لحكم العالم وتطهيره، أي أنه مهديهم المنتظر.

لما قتل الحاكم بأمر الله تولى أمر الخلافة بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله والذي توفي 427هـ.

• الشدة المستنصرية:

بوفاة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في 427هـ، ذهبت الخلافة إلى ابنه أبو تميم محمد المستنصر بالله، وكان عمره لم يتعد السابعة بعد، لكنه استمر في الخلافة 60عاما، فكانت خلافته أطول عهود الخلافة في العالم قاطبةً سواء بين خلفاء السنة، أو خلفاء الشيعة.(1)

1- أ.د.محمد بركات البيلي – المرجع السابق – ص108

كانت بداية عهده تتمتع بالرخاء والازدهار، إلَّا أن الأزمات داهمته وزعزعت دولته، وترتب على ذلك ظهور ما عرف بعصر الوزراء العظام والذين استبدوا بالحكم، ولم يكن للخلفاء الفاطميين معهم من السلطة الا الاسم فقط.

كان السبب الرئيس في هذه الأزمة هو انخفاض النيل، حتى عز ما يأكله الناس وتفشى الموت حتى قيل أنه كان يموت كل يوم بمصر عشرة ألاف نفس، وأكل الناس بعضهم بعضا، وعرفت بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية.

دفعت الأحداث المستنصر إلى أن يعهد إلى والي عكا من قبله بدر الجمالي بإدارة شئون الدولة، وقد جعله الله سببا في انقاذ مصر من عثرتها، وبه بدأ عصر الوزراء العظام، الذين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية في هذا العصر، وكان أخرهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنهى الخلافة الفاطمية.

بويع أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بالخلافة بعد أبيه المستنصر، وفي عصره كان بداية تكوين الإمارات الصليبية في الشرق.

بويع الامر بأحكام الله بعد وفاة أبيه المستعلي، ثم تولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله عبد المجيد على أنه كفيل لطفل

منتظر سوف تنجبه إحدى سراري الامر بأحكام **الله**، **إلَّا أنه** ظل في الخلافة حتى مات وبويع للخلافة ابنه الظافر با**لله** أبو منصور إسماعيل.

لما توفي الظافر با**لله** أخذت البيعة لابنه الفائز بنصر **الله** والذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره بعد، فكانت مقاليد الحكم كلها في يد الوزير طلائع بن رزيك.

سقوط الدولة الفاطمية:

توفي الخليفة الفائز وخلفه العاضد لدين **الله** الفاطمي، وهو أخر خلفاء الدولة الفاطمية، اذ أن عصره شهد تطورات عظيمة كان لها بالغ الأثر في تغيير بوصلة التاريخ، ليس في مصر والعالم الإسلامي فحسب، بل العالم باسره.

فقد تنازع على منصب الوزارة في عهده اثنين من رجالات الدولة أحدهما يدعى شاور وهو والي الصعيد، والأخر هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي.

فَرَّ شاور إلى الشام وكان بها دولة سنية قوية هي الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي، وحكمها بعد وفاته ابنه نور الدين محمود، وكان للدولة الزنكية صولات وجولات ضد الحملات

الصليبية التي جاءت إلى الشرق واستطاعت أن تكون إمـارات صليبية مستغلة حالة الضعف والهوان التي مرت بها كل من الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الشيعية.

على أي حال استنجد شاور بنور الدين محمود، وتعهد له أن يدفع نفقات الحملة التي ترسل معه لتأتيه بالوزارة، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كجزية سنوية، وأن يتصرف في مصر كوكيل لنور الدين محمود.

من ناحية أخرى علم ضرغام بتحالف شاور ونورالدين، فعمل على محالفة عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي، إلّا أن الجيش الذي أرسله نور الدين محمود إلى مصر مع شاور، والذي كان بقيادة أسد الدين شيركوه، كان أسرع في الوصول إلى مصر واستطاع هزيمة ضرغام وقتله.

يبدو أن شارور بعد أن تخلص من ضرغام بفضل جيش نور الدين محمود، قد تنكر من وعوده له وطلب من أسد الدين شيركوه أن يغادر مصر، إلّا أن أسد الدين شيركوه رفض المغادرة ورابط بجيشه في بلبيس بالشرقية حتى ينفذ شاور وعوده.

استنجد شاور بعموري ملك بيت المقدس ليخلصه من جيش

شيركوه المرابط في بلبيس، وبالفعل وصل جيش عموري وحاصر شيركوه في الشرقية، إلَّا أنه تم الاتفاق على مغادرة شيركوه وعموري مصر معا، فخرجا وتركا مصر لشاور مرة أخرى.

كل هذه الأحداث تمر بالبلاد وأكثر، والخليفة العاضد الفاطمي لا حول له ولا قوة.

مرت الشهور، ووجهت الحملات الصليبية إلى مصر برعاية شاور، ولم يكن أمام السلطان نور الدين محمود بُدًّاً من إرسال جيشه إلى مصر للتصدي للحملة الصليبية القادمة، كم أنه أدرك أهمية مصر إن استطاع انتزاعها من الفاطميين الشيعة وضمها إلى تحالف دولته المجاهدة ضد القوى الصليبية في الشرق.

أرسل نور الدين محمود جيشه من جديد إلى مصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه مجددًا والذي استطاع هزيمة الحملة الصليبية وقتل شاور الخائن، وتم تعيين أسد الدين شيركوه وزيرًا للخليفة العاضد الفاطمي.

ما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين فقط من الخلاص من شاور فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

ورغم صغر سن صلاح الدين، إلَّا أنه استطاع ان يكسب ثقة

أهل مصر ومحبتهم وكانوا عونًا له فيما واجهه من قلاقل وفتن داخلية، أو أطماع الصليبيين الخارجية.

أصبح صلاح الدين هو حاكم مصر المطلق بينما أصبح الخليفة العاضد بلا أمر ولا نهي.

وكان أمرًا متناقضا أن تبقى الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة سنية متشددة في ميولها السني، إذ كان نور الدين سنيًا متشددًا وكان صلاح الدين كسيده نور الدين في ميوله السنية.[1]

ويبدو أن نور الدين كان يلح على إسقاط الخلافة الفاطمية حتى أرسل أمرًا نهائيًا إلى صلاح الدين بإسقاط اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي المستضئ بدلا منه، وهو ما يعني انتهاء الدولة الفاطمية ورجوع مصر إلى الدولة العباسية مرة جديدة.

تم ذلك في 567هـ، ومر هذا الانقلاب في هدوء وسكينة أو على حد قول ابن الأثير "لم ينتطح فيه عنزان"، وفيما يبدو أن الشعب المصري كان يرغب في ذلك، وبهذا انتهت الدولة الفاطمية نهائيًا في مصر وغيرها، بعد أن حكمت مصر حوالي قرنين من الزمان.

1- أ.د. محمد بركات البيلي - المرجع السابق - ص132

الفصل الخامس

الدولة الأيوبية والخطر الصليبى

صلاح الدين الأيوبي:

تنسب الدولة الأيوبية إلى مؤسسها يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، وعُرفَ بالناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو ليس من أصول عربية بل هو كردي الأصل ويرجع نسبه إلى أحد أكبر قبائل الأكراد، وكان لأسرة صلاح الدين فرصة عظيمة في الوصول إلى أعلى المناصب القيادية في جيش عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود وهم أصحاب الدولة الزنكية في الشام.

استطاع صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية في سنة 567هـ، ومن ثم عمل على القضاء على المذهب الشيعي في مصر وإحياء المذهب السني، واتخذ في هذا السبيل عدة اجراءات نذكر منها: عزل قضاة الشيعة وعين قاضيًا واحدا لجميع أنحاء الديار المصرية

على المذهب الشافعي، كما قام بالغاء مجالس الدعوة الفاطمية في الجامع الأزهر وأبطل الأذان بعبارة (حي على خير العمل)، وأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة، وعمل على إزالة أسماء الخلفاء الفاطميين التي كتبت على محاريب الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع عمرو بن العاص.

أنشأ صلاح الدين المدارس المختلفة لتحل محل الأزهر في القيام بإحياء المذهب السني، كما تخلص من الكتب التي تتناول المذهب الشيعي.

في كل الأحوال استطاع صلاح الدين إعادة مصر إلى سنيتها المعتدلة التي عرفت عنها عبر التاريخ الإسلامي.

أما عن موقف صلاح الدين من سيده نور الدين محمود، فلم يحاول الخروج عليه أو عصيانه، وإن كانت قد ظهرت في الأفق بوادر الاختلاف، وظل الأمر على ما هو عليه حتى توفي السلطان نور الدين محمود سنة 569هـ والذي كانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي، إلَّا أن بوفاته قد خلت الساحة لصلاح الدين ليصبح زعيما للعالم الإسلامي.

ومالبث صلاح الدين أن أصبح سلطانًا على مصر، إلَّا وعمل على إقامة جبهة إسلامية موحدة لمواجهة الخطر الصليبي، فقام

بتوحيد مصر والشام والعراق في دولة واحدة، وهو المثلث الإسلامي التاريخي الذي يتولى دائمًا مهمة الدفاع عن الأمة الإسلامية.

عمل صلاح الدين على تحصين مصر والقاهرة تحديدًا، فقام ببناء سور عظيم حول القاهرة ثم حفر خندقًا حوله، أما القلعة فكانت هي الأهم، لأنها ستكون مقرًا للحكم الأيوبي بدلًا من دور الحكم الفاطمية، ولتكن حصنًا يحتمي به من أي خطر يواجهه، وقد أحسن موقعها، اذ بناها على جبل المقطم لتشرف على القاهرة كلها.

وفي زيارة الرحالة الأندلسي ابن جبير لمصر، شاهد القلعة ووصفها بأنها "حصن حصين المنعة"، وقد عهد صلاح الدين إلى الأمير بهاء الدين قراقوش بالإشراف على بنائها، إلَّا أن عمارة القلعة لم تتم إلَّا في عهد السلطان الكامل، ولم يقدر صلاح الدين أن يسكنها.

أقام صلاح الدين قلعة أخرى تقع في جزيرة فرعون قرب مدينة طابا، وقلعة ثالثة تعرف باسم الجندي، ثم شرع في تحصين الموانئ والثغور وبناء الأسطول.

بعد أن أتم صلاح الدين تحصين مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية أصبح واجب الوقت على صلاح الدين هو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام واسترداد بيت المقدس منهم، وهو لم يتأخر في ذلك.

• التعريف بالحملات الصليبية على الشرق الإسلامي:

في اللحظة التي تقع فيها عيناك على مصطلح الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية، قد تعتقد أنها حملات دينية في ظاهرها وباطنها، بينما الحقيقة أنها لم تخرج في باطنها عن كونها عدوانًا استعماريًا اتخذ ظاهرًا دينيًا، حيث اتخذ رجالها من الصليب قناعًا لهم، ليوهموا عامتهم بأنهم يحاربون لنصرة المسيحية من عدوان المسلمين، مستغلين جهل الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش عصورها المظلمة، وكانت شعوب فقيرة وقعت فريسة لاستغلال حكام أوروبا لها، الذين أخفوا مطامعهم الاستعمارية في بلاد الشرق الإسلامي.

نجح بابا روما ورجال الدين المسيحي بأوروبا في إثارة حماس الشعوب والحكام لشن حملات صليبية على الشرق الإسلامي في شكل موجات متتالية استمرت حوالي مائتي عام وقد سميت بهذا الاسم، لأن جنود هذه الحملات اتخذوا من الصليب شعارًا لهم ورسموه على صدورهم وأعلامهم.

على أي حال بدأت الحملات الصليبية عام 490هـ بالحملة الصليبية الأولى مستغلة حالة ضعف الدولة الإسلامية أنذاك،

واستطاعت هذه الحملة إقامة أربع إمارات صليبية في الشرق وهي على الترتيب:

1. إمارة الرها شمال العراق
2. إمارة أنطاكية
3. إمارة بيت المقدس، وجعلوها مملكة لأهميتها الدينية
4. إمارة طرابلس

لم يكن صلاح الدين أول من جاهد ضد الصليبيين، حيث كانت الدولة الزنكية قد بدأت رحلة الجهاد ضدهم، واستطاع السلطان عماد الدين زنكي أن يسترد إمارة الرها من أيديهم كما تصدى ابنه السلطان نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وحرر الكثير من المدن الإسلامية ولكنه تُوفي قبل أن يحقق حلمه في استرداد بيت المقدس.

بعد جهاد الدولة الزنكية، جاء دور صلاح الدين للقضاء على وجودهم في الشرق وإستعادة بيت المقدس من أيديهم.

• **معركة حطين** 583**هـ** - 1187**م:**

لم تكن معركة حطين هي الأولى أو الأخيرة بين صلاح الدين والصليبيين، إلَّا أنها أهم المعارك وأشهرها في تاريخ المواجهة

بين المسلمين والصليبيين على مر تاريخ المواجهة بينهما.

قام أرناط أمير حصن الكرك الصليبي بالهجوم على قافلة كبيرة للمسلمين، ويبدو أنها لم تكن المرة الأولى لأرناط التي يهاجم فيها قوافل المسلمين حتى أن قوافل الحجاج لم تسلم منه.

أقسم صلاح الدين أنه إذا تيسر له أن يقبض على أرناط فسوف يقتله بيده، وكانت هذه الحادثة بمثابة عود الثقاب الذي أشعل نار الحرب.

أعلن صلاح الدين الحرب على الصليبيين وأخذ في تعبئة القوات واختار أن يقيم في دمشق خلال هذه المرحلة لتكون مركزًا ينظم منه تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة الفراتية.

استدرج صلاح الدين الصليبيين إلى سهل حطين بفلسطين في يوم شديد الحرارة، وأعمل صلاح الدين وجنده فيهم القتل ومن نجى من القتل كان مصيره الأسر، حتى إن ابن الأثير قد قال في ذلك: "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى"، وكان من بين الأسرى جان لوزجنان ملك بيت المقدس، وأرناط صاحب حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية (فرسان المعبد)، وقد أحسن صلاح الدين معاملتهم وأطلق سراحهم فيما بعد، إلا أرناط فقد أحضر إلى صلاح الدين فقتله وألقاه على باب الخيمة.

بعد إنتصار حطين توالت المدن والإمارات الصليبية في السقوط، حتى دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق 27من رجب سنة 583هـ في ذكرى الإسراء والمعراج.

إلّا أن أوروبا هبت كلها لاستعادة مستعمراتها التي استردها منهم صلاح الدين، وقامت البابوية بالدعوة لذلك، ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ملوك وأمراء أوروبا وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، ومعه كل من ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا.

لعب القدر دوره أمام هذه الجحافل الأوروبية، فغرق الإمبراطور الألماني أثناء عبوره أحد أنهار أسيا الصغرى فانهارت حملته ولم تتمكن من الوصول إلى الشام، ثم دب الخلاف بين ملك إنجلترا وملك فرنسا عاد على أثره ملك فرنسا إلى بلاده.

وجد ريتشارد نفسه وحيدا أمام صلاح الدين، ولما عجز عن هزيمته طلب منه الصلح وقبله صلاح الدين وعقد بينهما الصلح المعروف بصلح الرملة 588هـ.

في العام التالي لعقد صلح الرملة توفي السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي وللإنسانية كلها.

خلفاء صلاح الدين في مصر:

بعد وفاة السلطان صلاح الدين حدث نزاع على الحكم بين أبنائه، إلَّا أن الأمر انتهى إلى تولية ابنه العزيز عثمان حكم الدولة الأيوبية والذي لم يستمر حكمه أكثر من خمس سنوات حيث توفي 595هـ بعد أن سقط من فوق جواده قرب الأهرام.

تجدد النزاع بين أبناء صلاح الدين، فتعرضت الدولة الأيوبية إلى خطر التقسيم، حتى تدخل العادل أخو صلاح الدين وحافظ على وحدتها وأصبح سلطانها.

بوفاة الملك العادل وصل الملك الكامل إلى الحكم وفي عهده كانت أوروبا قد بدأت في ارسال حملاتها الصليبية إلى مصر باعتبارها رأس الأفعى كما وصفوها، حيث أدركت دوائر الحكم والقرار في أوروبا أن مصر هي العقبة الرئيسة التي تحول بينهم وبين تحقيق أحلامهم في الشرق، وبالفعل جاءت في عهد الملك الكامل حملة صليبية إلى مصر وحاصرت دمياط، إلَّا أن صمود أهل دمياط ومعهم السلطان الكامل واخوته كان كافيًا لرحيل هذه الحملة تجر ورائها أذيال الخيبة.

تُوفي السلطان الكامل محمد في 636هـ -1238م، وترك ولدان هما العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب، ورغم أن الصالح كان هو الأكبر سنًّا، إلَّا أن السلطان الكامل كان قد عهد بالعرش لابنه الأصغر العادل الثاني حيث كان غاضبًا على الصالح.

فقد حدث أن اشترى الصالح جماعة من المماليك الترك، وحاول الاستيلاء على العرش من يد أبيه الكامل محمد، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل مما دفع الكامل إلى أن يجعل العادل الثاني وهو الابن الأصغر، وريثًا له ووليًا لعهده.[1]

على أي حال لم يلبث العادل الثاني في الحكم طويلا حيث استطاع أخوه الصالح نجم الدين أن يستولي على الحكم منه.

وصادف عصر الملك الصالح في مصر، وصول لويس التاسع إلى حكم فرنسا، وكان قد أصيب بمرض عضال وأشرف على الموت، فنذر إن شفاه الله أن يقوم بحملة صليبية، وقد وصلت أنباء هذه الحملة الجديدة وهي السابعة من نوعها إلى الملك الصالح وكان موجودا بدمشق، ويبدو أنه علم أنها متجهة إلى مصر، وعلى الرغم من اشتداد المرض عليه قرر الرحيل إلى مصر.

1- تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام -ص13 د. ليلى عبد الجواد.

تصدَّى الملك الصالح للحملة الصليبية والتي كانت قد استولت على دمياط، إلَّا أن الوفاة قد أدركته قبل هزيمة الحملة وكان له ولد واحد لايزال على قيد الحياة وهو توران شاه الذي أكمل مسيرة أبيه في التصدي للحملة الصليبية، وعاونته على ذلك زوجة أبيه شجر الدر.

استطاع الشعب المصري هزيمة حملة لويس التاسع بل وألقوا القبض على لويس نفسه وقادوه أسيرًا مكبلًا بالأغلال إلى دار القاضي فخر الدين بن لقمان.

سقوط الدولة الأيوبية:

استعانت شجر الدر ببعض أمراء المماليك لتدبير مؤامرة للتخلص من توران شاه وقتله حتى تستولي على حكم الدولة الأيوبية لنفسها، وبالفعل استطاع هؤلاء التخلص من السلطان توران شاه وقتله في محرم عام 648هـ، وبمقتله انتهى الحكم الأيوبي في مصر والذي استمر نحو إحدى وثمانين سنة.

الفصل السادس

دولة المماليك والخطر المغولى

قيام دولة المماليك:

بعد مقتل السلطان توران شاه أخر سلاطين الأيوبيين على يد أمراء المماليك، أجمع أمراء المماليك على تنصيب شجر الدر ملكة على البلاد وأخذوا لها البيعة وقاموا بالدعاء لها على المنابر.

وقبل أن نتناول تاريخ حكام دولة المماليك في مصر، يجب علينا الإشارة إلى عدة نقاط مهمة، وهي:

- **أولًا:** من الواجب على كل مصري أن يدرس تاريخ دولة المماليك، اذ أصبحت مصر في عهدهم قوى عظمى في العالم إن لم تكن هي الأقوى دون منازع لعقود، كما أن دولة المماليك استطاعت أن تحمي مصر والعالم الإسلامي بأسره من خطرين كبيرين وهما: التصدي للخطر المغولي الذي هدد العالم كله، وتصفية

الوجود الصليبي في الشرق تمامًا باسترداد كل الإمارات التي استعمرها الأوروبيون في الشرق.

- **ثانيًا:** يمكن تقسيم تاريخ حكام المماليك في مصر إلى أسرتين رئيستين، وهما: أسرة المماليك البحرية ثم أسرة المماليك البرجية أو الشركسية.
- **ثالثًا:** من هم المماليك ؟ نجد أن أفضل تعريف لمصطلح المماليك أنهم عناصر تولت حكم مصر بعد سقوط الدولة الأيوبية، وهم جماعة من الرقيق جلبوا من بلدان مختلفة مثل القرم والقوقاز والقفجاق وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر، وكلها أقاليم أسيوية، وهم خليط من الأتراك والشركس والروم والروس والأكراد وبعض البلدان الأوروبية.

وقد فرض المماليك على أنفسهم عزلة ورفضوا الاختلاط أو التزاوج من سكان مصر والشام مما أوجد فجوة بين هؤلاء الحكام ومحكوميهم وترك أثرًا واضحًا في المجتمع المصري آنذاك.

كان يتم شراء المماليك من تجار النخاسة والذين يجلبونهم في الغالب من أسرى الحروب التي دارت بين الأتراك والمغول على أثر خروجهم من منطقة الاستبس في آسيا، بالإضافة

إلى أن بعض الناس في بلاد الترك باعوا أولادهم في أسواق النخاسة على أمل أن يصبحوا في يوم سلاطين، خاصة بعد أن قامت دولة المماليك وأصبح المماليك سلاطينا، تجدر الإشارة إلى أن تاجر المماليك كان يلقب بالخواجا أو تاجر الخاص.[1]

وكان المملوك يُنسب إلى أستاذه الذي اشتراه مثل بيبرس البندقداري نسبة إلى أستاذه ومربيه علاء الدين البندقداري، أو يُنسب إلى الثمن الذي اشتري به مثل قلاوون الألفي، أو يُنسب إلى التاجر الذي جلبه مثل المؤيد شيخ المحمودي نِسبة إلى الخواجا محمود شاه الرومي الذي جلبه.

بعد أن يتم شراء المماليك وهم صغار، كانوا يلحقوا بالطباق أي المعسكر، وهو المكان الذي يتعلم فيه القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام ويحفظ القرآن ثم يبدأ التدريب العسكري والفروسية.

- **رابعًا:** ما الفرق بين المملوك والعبد ؟ كلاهما من الرقيق إلَّا أن المملوك كان أبيض اللون ومهمته الأمور العسكرية والحرب، بينما العبد فكان أسود اللون ويعمل في الزراعة أو الخدمة أو غيرها.

1- تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام - ص15 د.ليلى عبد الجواد.

على أي حال قامت دولة يحكمها المماليك في مصر واستطاعت هذه الدولة أن تجعل عصرها واحدًا من أهم عصور مصر ان لم يكن هو الأهم، لما كان له من أثر باق في الشئون الداخلية للبلاد، وما اتسم به من أحداث لعبت فيها مصر دورًا يحسب لها كقلب الأمة العربية والإسلامية وكمنارة مضيئة، وملتقى أنظار وأطماع الفاتحين والسادة.

عصر الأسرة الأولى (المماليك البحرية – التركمان):

1. **شجر الدر:** هي شجر الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان لها دورًا عظيمًا في التصدي للحملة الصليبية التي جاءت إلى مصر في عصر زوجها الملك الصالح خاصة بعد وفاته.

أجمع أمراء المماليك على مبايعتها ملكة على مصر بعد مقتل توران شاه، وتمت بيعتها 648هـ – 1250م، واتفق المماليك على أن يكون الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العساكر.

خُطب باسمها على المنابر، وضُربت العملة باسمها، وأصبحت بذلك أول امراءة تتولى الحكم في بلد إسلامي على مر التاريخ، كما قال السيوطي "ولم يل مصر في الإسلام امراءة قبلها".

يبدو أن الشعب المصري حينها لم يقبل بفكرة أن تتولى امرأة الحكم، واعتبر الفقهاء ورجال الدين توليها العرش خروجًا على الدين، كذلك لم يوافق الخليفة العباسي المستعصم على تولي شجر الدر عرش السلطنة في مصر.

بدأت شجر الدر تشعر بحرج موقفها وبضعفها كامرأة، لذا جمعت الأمراء والقضاة وخلعت نفسها من السلطنة برضاها، وأشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الأعز أن تتزوج بالأمير أيبك التركماني مقدم العساكر وأتابكها ولازال يتلطف بها حتى أذعنت بذلك، ولم يقم القاضي تاج الدين من المجلس حتى عقد العقد بينهما، ثم بايع القاضي أيبك بالسلطنة بعد خلع شجر الدر، وبعد ان اتفق الأمراء على ذلك.(1)

2. **عز الدين أيبك:** هو السلطان المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي النجمي، وهو أول ملوك الترك بمصر، بويع بالسلطنة بعد خلع شجر الدر سنة 648هـ – 1250م، وكانت ولايته في عهد الخليفة العباسي المستعصم بالله.

واجه أيبك بعد اعتلائه عرش السلطنة العديد من الصعاب، منها

1– د.ليلى عبد الجواد – المرجع السابق – ص 180

ثـورات الأيوبيين ضده، إلَّا أن أخطر ما واجه أيبك كان غضب المماليك البحرية، لأن أيبك ليس منهم، وكان على رأس المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار مقدم المماليك البحرية، ومعه قلاوون وبيبرس، إذا كان هؤلاء أخطر المماليك البحرية على أيبك.

استطاع أيبك أن يتخلص من أقطاي بقتله، ففر معظم المماليك البحرية إلى الشام خوفًا من أن ينالوا مصير أقطاي.

ويبدو أن أيبك استبد بالحكم ولم يمنح شجر الدر أي صلاحيات، وهي التي كانت مجبرة على الزواج منه، فقررت أن تتخلص منه، واستطاعت أن تعد مجموعة من الخدم الذين قتلوه وهو بالحمام في القلعة وشاركت بنفسها في تنفيذ هذه المؤامرة، فأخذت تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع إليها حتى مات، ويبدو أنها نالت نفس المصير من القتل بنفس الطريقة على يد زوجة أيبك الأولى وأعوانها.

3. **المنصور علي بن أيبك:** هو السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيبك، بويع بالسلطنة بعد موت أبيه 655هـ–1257م، وكانت ولايته في عهد الخليفة المستعصم بالله العباسي، والذي قتل في بغداد على يد هولاكو ملك المغول.

ومن الجلي أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة في الحكم، بل كان من يبدي جدارته واستطاعته للسلطنة أخذها، وكان المنصور علي صبيًا في الخامسة عشر من عمره، مما جعله مطمعًا للإنتهازيين، فتم تعيين أحد أمراء المماليك وهو سيف الدين قطز ليكون وصيًا عليه ونائبًا للسلطنة.

وصلت الأخبار إلى مصر بان المغول استولوا على بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم، وحرقوا المساجد والجوامع وسفكوا دماء الآلاف من الناس، ثم اتجهوا إلى الشام، فشعر أهل مصر بالضيق وأدركوا أن الخطر قريب منهم.

في ظل هذه الظروف العصيبة التي حلت بالعالم الإسلامي كله، قرر سيف الدين قطز أن يعزل المنصور علي عن الحكم لصغر سنه واستحالة أن يكون على رأس السلطنة أثناء مواجهة المغول، وجمع قطز الأمراء وكبار القادة والعلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم:

" إني ماقصدت من السيطرة على الحكم إلَّا أن نجتمع على قتال التتار، وهذا لن يتأتى الا من خلال ملك قوي، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم"

وكان رأي معظم المماليك من رأي قطز وقالوا له ليس لها غيرك.

4. **سيف الدين قطز:** هو السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي، وهو من مماليك المعز أيبك التركماني، بويع بعد خلع الملك المنصور علي 657هـ – 1259م، ولم يكن في عهده خليفة للمسلمين بعد قتل الخليفة المستعصم وسقوط بغداد في يد المغول.

لم يلبث المغول أن زحفوا من العراق إلى الشام واستولوا عليها، والمغول أو التتار هم قبائل موطنهم الأصلي منغوليا بوسط أسيا، وقد اتصفوا بالقسوة والخشونة، كما لم يعرفوا حياة الاستقرار.

من وصفهم قوة البدن وهم ذو وجوه عريضة سمراء اللون، قصيرو القامة والأطراف، قويو العضلات، يأكلون جميع أنواع اللحوم حتى لحوم الأدميين.

كانت ديانتهم وثنية تعرف بالشامانية، وقد استطاع جنكيز خان أن يوحِّد كل قبائل المغول وعرف بالحاكم الأعظم، ولما أدرك قوة قبائله عزم على الزحف نحو الشرق الإسلامي ثم إلى العالم كله.

مات جنكيز خان وتولى أمر المغول أوغاداي، إلَّا أن هولاكو حفيد جنكيز خان كان هو الأشهر بين أباطرة المغول، فهو من استكمل مسيرة جده في الزحف وتوسيع إمبراطورية المغول.

بعد استيلاء المغول على العراق والشام، أصبح اجتياحهم لمصر مجرد أمر وقت لا أكثر ولا أقل، والأمور في يد قطز تسر وتسعد العدو ولا تطمئن المسلمين، فلا أمة موحدة ولا جيوش مستعدة ولا سلاح ولا عدة.

وصلت رسل هولاكو إلى مصر وقابل قطز هذا الأمر بقتلهم وعلق رؤسهم على باب زويلة وأعلن الجهاد قائلًا:

" من اختار الجهاد فليصحبني ومن لم يختره فليرجع إلى بيته "

بدأ قطز الاستعداد لمواجهة المغول، فوحد جبهة المسلمين وحث الناس على الجهاد بالنفس والمال، وطلب من الشيخ العز بن عبد السلام أن يفتيه بجواز فرض الضرائب على الناس لجمع الأموال اللازمة لتجهيز الجيش للمعركة فكان رد العز:

" إذا طرق العدو البلاد وجب قتاله وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهاده بشرط ألَّا يبقى في بيت المال شئ، وأن تبيعوا ممتلكاتكم ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه فتتساووا مع العامة ".

بدأ قطز بنفسه، وتبعه في ذلك أمراء المماليك، وقرر قطز الخروج لملاقاة المغول عند عين جالوت بفلسطين 658هـ – 1260م، فقال

ابن كثير " بـادرهم قبل أن يبـادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ".

قسَّم قطز جيشه إلى قسمين، قسم ضم مقدمة الجيش وطليعته وعهد بقيادته إلى بيبرس البندقداري، والقسم الثاني باقي الجيش، وكان بقيادة سيف الدين قطز نفسه، وفي المقابل كانت جيوش المغول بقيادة كتبغا.

عمل قطز على إثارة روح الحماسة في جنوده وحثهم على قتال المغول ونصرة الإسلام والمسلمين، ووضع قطز خطة عسكرية محكمة تتلخص في أن تقوم طليعة الجيش بقيادة بيبرس بمناوءة جيش كتبغا عند اقترابه، بينما يختبئ القسم الأكبر من الجيش بين الأحراش والغابات المحيطة بعين جالوت التي تقع بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين.

ظن كتبغا أن طليعة الجيش بقيادة بيبرس تمثل الجيش كله فحمل حملة قوية عليه، فتراجع بيبرس وفق الخطة تجاه الكمين والجيش المغولي في أثره، وفجأة خرج الجيش من ثلاث جهات وحاصر المغول.

اضطربت صفوف المسلمين أمام كثرة المغول، لكن قطز ثبت

في مكانه، وألقى بخوذته على الأرض، وصرخ بأعلى صوته "وإسلاماه، ياالله انصر عبدك قطز"،

وحمل بنفسه على المغول مما رفع الروح المعنوية لجيشه واستطاعوا هزيمة العدو وقتل كتبغا نفسه.

بهذا الانتصار العظيم يمكن التأكيد على أن دولة المماليك استطاعت حماية مصر والعالم الإسلامي من خطر المغول، واستطاع المماليك تدعيم ملكهم، ويعترف المؤرِّخون الأوربيون عند تأريخهم لمعركة عين جالوت أنها لم تنقذ العالم الإسلامي فحسب من الخطر المغولي، بل أنقذت العالم المسيحي كذلك، حيث لم يكن في أوروبا حينئذ ملك مسيحي قوي يستطيع مقاومة المغول لو تقدموا في طريقهم الطبيعي إلى أوروبا، وكان حتمًا سيتغير وجه التاريخ إذا حدث ذلك.

أما في مصر فقد عم الفرح، واستعدت القاهرة لاستقبال قطز بطل عين جالوت، وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت، واستعد أهل القاهرة لاستقبال البطل، ولكن شاء القدر ألَّا يصل قطز إلى القاهرة، فقد قتل في طريق عودته على يد بيبرس.

يبدو أن المماليك البحرية ومنهم بيبرس لم ينسوا أن قطز شارك

في قتل كبيرهم أقطاي زمن أيبك، كما أن قطز كان قد وعد بيبرس أن يعطيه ولاية حلب وقد تأخر في تنفيذ ذلك.

على أي حال دُبرت مؤامرة من المماليك البحرية للتخلص من قطز واستطاعوا قتله، وكان من الطبيعي أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله بيبرس.

5. **السلطان الظاهر بيبرس:** هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، رابع ملوك الترك في مصر، تسلطن بعد مقتل الملك المظفر قطز 658هـ 1260م.

كان قد تلقب أولًا بالملك القاهر أبي الفتوحات، فنهاه بعض العلماء عن هذا اللقب، وقيل له: " ما تلقب أحد من الملوك بهذا اللقب وأفلح "، فأبطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر.

من أهم أعماله، إعادة الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد المغول في بغداد، أعادها في مصر سنة 659هـ – 1261م بالاسم فقط، وبويع بها المستنصر بالله أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بعد أن أثبت نسبه.

ويعتبر الظاهر بيبرس بما قام به من أعمال سياسية وإدارية هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام، كما عمل على

ملاحقة الصليبيين والمغول، واسترد إمارة أنطاكية من الصليبيين، وقام ببناء المسجد المعروف باسمه والمدرسة الظاهرية بالقاهرة، واهتم بشئون الزراعة وتحسَّنت أحوال البلاد الاقتصادية في عهده

6. **السلطان بركة خان:** هو السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد المدعو بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري، تسلطن في حياة والده سنة 662هـ – 1263م، وبقي ليس له من السلطنة إلَّا الاسم إلى أن تُوفي أبوه الملك الظاهر بيبرس سنة 676هـ – 1277م، وظل في الحكم عامين تقريبًا حيث خلع سنة 678هـ –1279م، ومات في نفس العام، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.
7. **السلطان سلامش:** هو السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس، بُويع بعد خلع أخيه الملك السعيد سنة 678هـ – 1279م، وهو ابن سبع سنين، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.
8. **السلطان قلاوون:** هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل سلامش سنة

678هـ – 1279م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

9. **السلطان خليل:** هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون الألفي، تولى بعد أبيه سنة 689هـ– 1290م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

واصل الجهاد ضد الصليبيين حتى استطاع أن يسترد منهم عكا، والتي كان استردادها تمهيدًا لاسترداد العديد من المدن مثل صور وصيدا وغيرها.

10. **السلطان بيدرا:** هو الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري، اختاره الملك الأشرف بعد توليه الملك، ليكون نائبا للسلطنة بالديار المصرية، إلَّا أنه قتل الملك الأشرف وأخذ البيعة لنفسه، ولقب بالملك الأوحد سنة 693هـ – 1293م، وما لبث أن تولى السلطنة حتى قتل في صبيحة اليوم التالي على يد الأمير زين الدين كتبغا.

11. **السلطان الناصر محمد (الولاية الأولى):** هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون، بويع بالسلطنة بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل

وهو ابن تسع سنين، وكانت هذه الولاية في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

12. **السلطان كتبغا:** هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي، وأصله من سبايا التتار، ولما تولى الناصر محمد جعله نائب السلطنة، إلّا أنه قام بخلع الناصر محمد صغير السن سنة 694هـ – 1294م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

13. **السلطان لاجين:** هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا 696هـ – 1296م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

14. **السلطان الناصر محمد (الولاية الثانية):** قتل السلطان المنصور لاجين، وأعيد الناصر محمد إلى السلطنة مرة أخرى، وكان منفيا بالكرك سنة 698هـ – 1298م، وفي ولايته هذه توفي الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وبويع بالخلافة المستكفي بالله العباسي.

15. **السلطان بيبرس الثاني:** هو السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، بويع بالسلطنة بعد أن خلع الملك الناصر نفسه وهو بالكرك بكتاب كتبه إلى الديار

المصرية يتضمن عزل نفسه عن السلطنة في 708هـ – 1308م.

16. **السلطان الناصر محمد (الولاية الثالثة):** في سنة 709هـ – 1309م،أعلن بيبرس الثاني أنه خلع نفسه من السلطنة واستولى على خزائن مصر وفر هاربًا بعد أن فوجئ برحيل معظم الأمراء المماليك إلى الناصر محمد بالكرك ليصحبوه في عودته إلى القاهرة.

شارك الناصر محمد في كثير من الحروب ضد الصليبيين كما اهتم بإقامة نهضة حضارية عمرانية لم تشهدها مصر في عهد أي سلطان من سلاطين دولة المماليك.

تعاقب على السلطنة عدد من السلاطين المماليك بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهم على الترتيب:

- المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد
- السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد
- السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد
- السلطان الملك الصالح أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد
- السلطان الملك الكامل زين الدين شعبان بن الناصر محمد
- السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي المعروف بأمير حاج بن الناصر محمد

– السلطان الملك الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (المرة الأولى)

– السلطان الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد

– السلطان الملك الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (المرة الثانية)

– السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد

– السلطان الملك الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون.

– السلطان الملك المنصور علاء الدين علي بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد.

– السلطان الملك الصالح زين الدين أبو الجود أمير حاج بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد (المرة الأولى)

وبانتهاء فترة السلطنة الأولى للصالح حاجي انتهى عصر أسرة المماليك البحرية وبدأ حكم أسرة المماليك الشراكسة (البرجية) 784هـ – 1382م.

عصر الأسرة الثانية (المماليك البرجية - الشراكسة):

يعتبر السلطان المنصور قلاوون صاحب فكرة تكوين هذه الفرقة من المماليك، حتى يعتمد عليها ضد منافسيه، وتكون في نفس الوقت سندًا لإبنائه من بعده في الاحتفاظ بالعرش، كذلك رأى المنصور قلاوون أن تختلف فرقته الجديدة في أصولها عن سائر طوائف المماليك الآخرى، أي لا تكون من الأتراك، لذا اختار عنصر الجركس أو الشركس وهم الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا الحالية).

وكان سلاطين المماليك من هذه الأسرة هم على الترتيب:

- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجركسي (الولاية الأولى)
- المنصور حاجي، وقد أعيد للسلطنة مرةً ثانيةً بعد خلع الظاهر برقوق 791هـ–1389م
- السلطان برقوق (الولاية الثانية)، بعد أن خلع منصور حاجي نفسه 792هـ–1390م
- السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الظاهر برقوق (الولاية الأولى)

- السلطان الملك المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز بن الظاهر برقوق
- السلطان الناصر فرج (الولاية الثانية)
- الخليفة المستعين، حيث بعدما قتل السلطان الناصر فرج، اتفق الأمراء على إقامة الخليفة العباسي المستعين في السلطنة بالإضافة إلى الخلافة، وقد وافق بعد الحاحهم وبايعوه جميعا، وظل يجمع بينهما حتى خلعه المؤيد شيخ المحمودي
- السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ المحمودي الظاهري، وعرف بالخاصكي المجنون
- السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ
- السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر
- السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد أبو السعادات بن الظاهر ططر
- السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري
- السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأشرف برسباي

- السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد محمد جقمق العلائي الظاهري
- السلطان الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن الظاهر جقمق
- السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر اينال العلائي الظاهري برقوق الناصري فرج
- السلطان الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف اينال
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي
- السلطان الملك الظاهر أبو نصر يلباي الاينالي المؤيدي
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري، صاحب القلعة المشهورة بالإسكندرية.
- السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي (الولاية الأولى)
- الأشرف أبي النصر قانصوه خمسمائة
- السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي (الولاية الثانية)
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه بن قانصوه الأشرف

- السلطان الملك الأشرف أبو النصر جانبلاط بن يشبك الأشرفي
- السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي قايتباي (طومان باي الأول)
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري الأشرفي
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر طومان باي من قانصوه الناصري (طومان باي الثاني)، وقد وقع الاختيار عليه بعد مقتل قانصوه الغوري، وبويع بعد معارضة منه سنة 922هـ – 1516م، ثم صلبه العثمانيون على باب زويلة 1517م، وبوفاته انتهى عصر دولة المماليك.

سقوط دولة المماليك:

كانت دولة المماليك القوى العظمى في العالم، وصاحبة السيادة على العالم الإسلامي، وبانتقال الخلافة العباسية إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس وان كانت بالاسم فقط دون أي صلاحيات، أصبحت دولة المماليك صاحبة الشرعية في إدارة شئون الدولة الإسلامية كلها.

إلَّا أن عدة عوامل قد اجتمعت وأدت إلى انتهاء وسقوط دولة المماليك، أهم هذه العوامل كان الصراع على السلطة والحكم

بين المماليك أنفسهم مما كان له بالغ الأثر في إضعاف قوتهم حيث انخرطوا في معارك داخلية ضد بعضهم، وأنهكت قوتهم، ولم يدركوا الأخطار التي تهدد حكمهم ولاسيما الخطر العثماني الذي لاح في الأفق وتطلع إلى بسط نفوذه على كل العالم الإسلامي وانتزاع شرعية المماليك في حكم الدولة الإسلامية.

كما أن دولة المماليك تعرضت إلى إنهيار اقتصادي شديد خاصة بعد أن استطاع البرتغال إكتشاف طريق جديد تمر منه القوافل التجارية بين الشرق والغرب بعيدا عن أراضي دولة المماليك، هذا الطريق الذي عرف برأس الرجاء الصالح، وترتب على ذلك حرمان المماليك من تحصيل المكوس أو الضرائب التي كانت تجمع من القوافل التجارية العابرة من أراضيها في مصر والشام.

ومما لاشك فيه أن الانهيار الاقتصادي لدولة المماليك بطبيعة الحال صحبه تدهور في قوتهم العسكرية، بالإضافة إلى التطاحن المستمر فيما بينهم ونزاعهم المستمر على السلطة وانقسامهم إلى فرق ومجموعات وأحزاب.

اجتمعت كل هذه العوامل وغيرها، ومهدت الطريق أمام السلطان العثماني القوي سليم الأول الذي استطاع هزيمة المماليك في معركتين غيرا تاريخ الدولة، وهما:

• **معركة مرج دابق** 1516م:

استطاع السلطان سليم الأول هزيمة المماليك في الشام، وقتل السلطان الغوري الذي قيل أنه سُحِقَ تحت أرجل خيول مماليكه الفارين.

• **معركة الريدانية** 1517م:

عاد شتات جيش المماليك المهزوم في مرج دابق إلى مصر، ووجب على الفور اختيار سلطان جديد، فأعلن طومان باي ابن أخي قانصوه سلطانًا.

قام طومان باي بتجهيز جيشه متخذًا موقف الدفاع واثقًا من أن العثمانيين لن يخاطروا بعبور صحراوات أوقفت كلًا من هولاكو وتيمورلنك، إلَّا أن سليم الأول فاجئه، وعبر هذه الصحراوات إلى مصر حتى كانت معركة الريدانية قرب صحراء العباسية، وماقبلها ومابعدها من مناوشات بين الطرفين.

على أي حال هزم طومان باي وسيق أسيرا إلى سليم الأول الذي أشفق عليه وشمله بالتكريم وضمه إلى حاشيته، ويبدو بعد ذلك أن سليم الأول أدرك خطورة طومان باي عليه، فاتهمه أمام العلماء، وحكم عليه بالموت كشريك في مؤامرة دبرت ضده، وصُلِبَ طومان

باي على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، وبموته انطفأت أسرة المماليك البرجية، وتحولت مصر مرة جَدِيدَة إلى مجرد ولاية بعد أن كانت حاضرة للعالم الإسلامي لعدة قرون.

الباب العاشر

مصر تحت السيادة العثمانية

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية

الترك أو الأتراك أو التركمان، كلها تدل على نفس القبائل، وموطنهم الأصلي وسط أسيا، وقد تدفق الأتراك إلى أراضي الدولة العربية الإسلامية من خلال موجات متتالية، منها ما جاء في شكل غزو أو هربًا من المغول، ومنهم من جاء ضمن تجارة النخاسة مثل المماليك، ومنهم من استطاع إقامة دولًا إسلامية قوية مستقلة كالسلاجقة والعثمانية وغيرهما.

على أي حال، ما لبث أن حل القرن الرابع عشر الميلادي إلَّا وكانت معظم قبائل الأتراك قد دخلت في الإسلام، وشهد الأتراك تطورات سريعة ومتلاحقة ومواجهات عديدة ضد المغول أو الصليبيين أكسبتهم خبرات سياسية وعسكرية وكان قطف ثمرة هذه الجهود من نصيب عثمان بن أرطغرل الذي استطاع توحيد

جمع كبير من الأتراك تحت سلطانه، ثم بدأ السير بخطى سريعة نحو إقامة كيانهم ودولتهم مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

ركز أل عثمان بدأ من أورخان بن عثمان و مراد وبايزيد الأول بن مراد جهودهم داخل الأناضول، وفي نفس الوقت العمل على خلق رأس جسر لهم على الشاطئ الأوروبي المواجه بدخولهم (غاليبولي) سنة 1358م، لتكون هذه هي النقطة الرئيسة لآل عثمان ليس فقط للاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان، بل والاطاحة بالدولة البيزنطية بخنق عاصمتهم القسطنطينية.[1]

بعد أن استقرت الأمور للدولة العثمانية على أطراف أوروبا، تطلع سلاطين الدولة إلى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، والتي كان فتحها حلما يراود كل من حكم دولة الإسلام في كل عصر وكل مصر.

استطاع السلطان العثماني محمد الثاني والذي لُقِبَ بالفاتح أن يهزم الدولة البيزنطية المدعومة من أوروبا كلها ويدخل القسطنطينية منتصرًا فاتحًا بعد أن ظل محاصرا لها مايقرب من ثلاثين يوما في مايو سنة 1453م.

1- الدولة العثمانية والعرب - د. عبد الحليم علي -دار الثقافة العربية ص25

كان هذا الفتح فتحًا عظيمًا ترتب عليه نتائج أعظم، وقد أصبحت الدولة العثمانية هي حامية العالم الإسلامي بل والقوة العظمى في العالم، واستطاعت أن تتوغل بالفتوحات في أوروبا وتحديدًا في منطقة البلقان وضمت البوسنة وحاصرت بلغراد وسقطت أثينا.

كانت هذه الانتصارات التي حققها العثمانيون والمكانة الرفيعة التي وصلت إليها دولتهم، في نفس وقت ضعف وانهيار دولة المماليك، وأصبح يقينًا عند الجميع أن الدولة العثمانية قادمًة لا محالة لبسط نفوذها على كل العالم الإسلامي، بل وضم إليها المزيد من المساحات الجديدة كالأناضول والبلقان.

اذا تتبع الباحثون تاريخ هذه الفترة، وبعد إتمام الدولة العثمانية سيطرتها على الأناضول والبلقان، لم يعد أمامهم الا الاتجاه بالغزوات نحو الشرق،فرغم انتصارهم في القسطنطينية (الآستانة – استنبول)، إلَّا أنهم أدركوا صعوبة الاتجاه غربًا لتفوق الغرب الأوروبي عليهم علميًا وحضاريًا مما سيكون له أثر على القوة العسكرية.

وقد أدى اتجاه الدولة العثمانية بغزواتها نحو الشرق إلى الاصطدام بالدولتين الصفوية والمملوكية حيث:

- **الصدام العثماني الصفوي:**

بعد أن تربع سليم الأول على السلطنة سنة 1512م، أدرك أن دخول الصفويين بغداد سنة 1508م، يعني مزاحمة الدولة العثمانية سياسيًا بل ودينيًا، باعتبار الصفويين شيعة بينما العثمانيون على المذهب السني، فضلًا عن زعامة المسلمين من ناحية المبدأ خاصة عندما قرر إسماعيل الصفوي نشر دعوته الشيعية شرقي الأناضول، وهي أراض عثمانية.

قرر سليم الأول التقدم نحو فارس والزحف باتجاه تبريز عاصمة الدولة الصفوية، فتصدت له القوات الصفوية عند سهل جالديران 1514م، فهزمهم سليم، واستطاع إسقاط الدولة الصفوية والسيطرة على أملاكها.

- **الصدام العثماني المملوكي:**

على النقيض من العلاقة العثمانية الصفوية، كانت العلاقة بين المماليك والعثمانيين في بداية الأمر علاقة طيبة وعلى هذا شواهد كثيرة، منها احتفال المماليك بالفتح العثماني للقسطنطينية

وإقامة الاحتفالات في القاهرة لذلك، كذلك فإن الدولة العثمانية أمدت المماليك بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية ضد غريمهم البرتغالي في موقعة ديو البحرية سنة 1509م.

يبدو أن العلاقة العثمانية المملوكية لم تدم طيبة لوقت طويل، فسرعان ما تدهورت العلاقة بينهما خاصة مع وصول سليم الأول إلى حكم الدولة العثمانية والذي بلغ طموحه حدًا غير منظور، وأصبح كل من العثمانيين بقيادة سليم الأول، والمماليك بقيادة قانصوه الغوري على يقين بان لا بقاء للاثنين معًا ولابد لأحدهما من السيطرة والتفوق.

بات كل طرف يتصيد الأخطاء للآخر، ومن الواضح أن سليم الأول كان أكثر حنكة وأعلى تجهيزًا من غريمه، واشتعلت الأمور بينهما خاصة عند رفض المماليك تسليم بعض الأمراء العثمانيين المعارضين الفارين إلى أراضيها كما أن سليم الأول أراد بسط نفوذه على مصر قلب العالم الإسلامي مما يتيح له السيطرة على الحجاز ليصبح الحامي الوحيد لرعاياه في العالم الإسلامي.

قامت الدولة العثمانية بضم إمارات جديدة لنفوذها منها ديار بكر وذي القادر وغيرها، وكان منها ما هو تحت حكم دولة المماليك، مما يشير إلى دق ناقوس الحرب بين الدولتين.

أخذ قانصوه الغوري المملوكي أهبة الاستعداد والمبادرة للمواجهة الحتمية فحرك قواته قاصدًا الأناضول.

لم تبق إلَّا ذريعة التصادم كي يجد سليم الأول سببا لاقتحام حدود الدولة المملوكية، فتظاهر بانه متجه نحو الشرق إلى فارس وأعلن أن قانصوه قد منعه.

على اي حال كان الصدام في الشام، ودارت معركة عند مرج دابق 1516م واستطاع سليم الأول الانتصار، وقتل قانصوه الغوري تحت أرجل خيل المماليك، وترتب على ذلك استيلاء العثمانيون على كل حلب وحماة وحمص ثم دمشق، فأصبحت الشام كلها ولاية عثمانية.

بايع المماليك طومان باي سلطانًا على مصر بعد مقتل قانصوه الغوري، والذي اطمأن إلى الصحراء الشاسعة التي تفصل سليم الأول عنه، لكن ما لبثت أن وصلت إليه الأخبار بان سليم الأول قد استولى على غزة وانحرف بجيشه جنوبًا مخترقًا صحراء سيناء.

التقت جيوش المماليك مع العثمانيين عند الريدانية قرب صحراء العباسية، وانتصر كذلك سليم الأول في هذه المعركة، ثم أعدم طومان باي.

كانت النتائج المترتبة على استيلاء العثمانيون على مصر والشام في غاية الأهمية، اذ تغير تاريخ المنطقة، وأثرت على تاريخ العالم كله.

تبلورت أهم هذه النتائج في أن مصر تحولت من دولة كبرى في عصر المماليك تبسط نفوذها عما حولها من أقاليم إلى مجرد ولاية عثمانية كسائر الولايات العثمانية، كما أن خلافة العالم الإسلامي، وزعامته الدينية والسياسية انتقلت إلى الدولة العثمانية، وأصبح سليم الأول الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي.

.

الفصل الثانى

أحوال مصر تحت السيادة العثمانية

ومجئ الحملة الفرنسية

استمرت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية أربعة قرون متتالية منذ دخول سليم الأول مصر سنة 1517م، وكانت مصر في عصر المماليك أعظم شأنا من حيث السياسة، فكانت هي مقر السلطان المملوكي الذي يبسط نفوذه وسيطرته على معظم العالم الإسلامي، كما تحولت إليها الخلافة العباسية بعد أن دمر المغول بغداد، فأصبحت القاهرة حاضنة للخليفة العباسي صاحب الشرعية السياسية.

أما مصر العثمانية فهي ولاية كباقي الولايات، وان كان لها أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية، على أي حال أقام العثمانيون نظامًا إداريًا يكفل لهم السيطرة على مصر وعدم انفصالها عنهم،

خاصة مع وجود أعداد كبيرة من المماليك في مصر يصعب التخلص منهم إذ كونوا طبقة اجتماعية واسعة في مصر.

كان النظام الإداري الذي وضعه العثمانيون في مصر يوزع السلطة بين كل من الوالي (الباشا) – الديوان – المماليك، بالإضافة إلى وجود الحاميات العثمانية المنتشرة في كل مكان.

أما الوالي (الباشا)، فهو نائب السلطان في حكم مصر ومقره القلعة، ولم يكن له مطلق التصرف في المسائل المهمة، بل كان عليه أن يحيلها إلى الديوان.

وقد تكوَّن الديوان من كبار ضباط الحامية العثمانية والموظفين وعلماء الأزهر والأعيان، وكانت أهم مهامه هي مراقبة الوالي العثماني، أي لا ينفرد الوالي بقرار إلَّا بعد موافقة الديوان.

وكانت إدارة الأقاليم من نصيب المماليك، حيث قسَّم العثمانيون مصر إلى 24 مديرية (إقليم) يحكمها عدد مماثل من البكوات المماليك، وكان الطموح الأوحد لهؤلاء البكوات الحصول على لقب شيخ البلد (حاكم القاهرة)، لأنه يمنحهم الأولوية على زملائهم، بل على مصر كلها.

وإذا كان الباب العالي العثماني في الآستانة (العاصمة

العثمانية) قد وجد ميزة حقيقية في تصادم السلطات هذا، فإن الشعب المصري لم يجن منه سوى الحطام، وعانى من استنزاف الباشا له، ومعه أربعة وعشرون مستبدًا يتقاسمون ثرواته.

وقد حكم مصر منذ ضمها للسيادة العثمانية وحتى عام 1707م ما يقرب من ثمانين واليًا عثمانيًا تابعين للسطان مباشرة، وفي هذا التاريخ وبوصول الوالي حسن باشا لحكم مصر معينا من قبل الآستانة، بدأ النزاع المسلح يشتد بين بكوات المماليك على منصب شيخ البلد، ويبدو أن نفوذ شيخ البلد منذ ذلك التاريخ قد زاد عن نفوذ الوالي، ويمكن الجزم بأن شيخ البلد من المماليك أصبح هو من يدير شئون ولاية مصر، وعرفت أسرة المماليك الحاكمة من خلال منصب شيخ البلد في هذا الوقت باسم أسرة المماليك البكوات أو الأغوز، وكانوا على الترتيب:

- قاسم ايواز بك
- إسماعيل بك
- شركس بك
- ذو الفقار بك
- عثمان بك

- إبراهيم بك
- حسين بك الخشاب
- رضوان بك
- حسين بك المقتول
- خليل بك
- علي بك الكبير
- محمد بك أبو الدهب

ولم ينل أي منهم الشهرة في التاريخ إلَّا علي بك الكبير ومحمد بك أبو الدهب، إذ يرتبط اسمهما بحركة استقلالية مشهورة عرفت باسم حركة علي بك الكبير عام 1768م.

كان علي بك الكبير قد أُعلن شيخا للبلد سنة 1764م، بعد أن ساعده محمد بك أبو الدهب فى التخلص من ألد أعدائه، وأراد علي بك أن يثبت أنه يستحقها، فكان عادلًا مع الجميع، وطهر الطرقات من لصوص الأعراب وانشغل بفعل الخير، كما قام بترقية اتباعه، وحظى محمد أبو الدهب بوظيفة بك، وكان اليوم الذي تولى فيه وظيفته يوم كرم وبذخ فقام بإلقاء عملات ذهبية على الناس، وقد أدى هذا الكرم غير المعتاد إلى استحقاقه لقب أبو الدهب.

تطلع علي بك إلى الملكية والانفصال عن الباب العالي (الدولة العثمانية) ، لذا قام بعدة خطوات للوصول إلى أهدافه، فكان لأقل سبب يعزل ويستبعد الموظفين المدنيين والعسكريين ويستبدلهم بأشخاص تابعين له.

كما خفض عدد القوات العثمانية، وزاد عدد مماليكه وجند عددًا كبيرًا من البرابرة، وكلف محمد بك أبو الدهب بتخليصه من خصومه الذين يخشاهم.

استغل علي بك انشغال الباب العالي في قتال الروس، وقام بطرد محمد باشا الوالي العثماني وجعله يتجه بمهانة إلى الآستانة، كما أرسل معاونه محمد بك أبو الدهب لضم مكة واليمن إلى نفوذه، ويبدو أنه نجح في ذلك.

وما إن حل عام 1768م إلَّا وعلي بك الكبير قد أعلن نفسه سلطانًا على مصر، وطلب من المشايخ الدعاء له على المنابر، وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر حاكم جنوب الشام ضد السلطان العثماني، وأخضع بلاد الحجاز لنفوذه.

ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه أو ينتظره علي بك الكبير، اذ انحاز قائده الذي اعتمد عليه في كل شئ محمد بك أبو الدهب إلى السلطان

العثماني، فلم يجد علي بك الكبير أمامه إلَّا الهرب بعد هذه الخيانة، إلَّا أنه لم يستطع الاختباء كثيرًا حيث قتل ليصبح محمد بك أبو الدهب شيخًا للبلد.

على أي حال فشلت حركة علي بك الكبير الاستقلالية وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد تحت حكم شيخ البلد محمد بك أبو الدهب الذي نال هذا المنصب كمكافأة من السلطان العثماني نظير خيانته لسيده علي بك الكبير، وما لبث محمد أبو الدهب أن تُوفي حتى انتشرت الفوضى في البلاد وعم النزاع بين المماليك، وفوجئ الجميع بنزول الحملة الفرنسية شواطئ الإسكندرية.

• **الحملة الفرنسية** 1798م – 1801م:

مما لاشك فيه أن الحملة الفرنسية على مصر والشام تعد حلقة من حلقات التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا، هذا التنافس الذي يمكن أن نقول أنه قد بدأ في القرن السابع عشر الميلادي، واستمر طوال القرن الثامن عشر الميلادي.

وتختلف أسباب هذه الحملة من وجهة نظرنا عن الأسباب التي أدَّعى نابليون بونابرت قائدها أنه جاء من أجل تحقيقها.

فقد زعم نابليون بونابرت والحكومة الفرنسية وقتئذ أنهم أرسلوا

هذه الحملة إلى مصر لمحاربة المماليك الغرباء عن البلاد الذي يستنزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها، وأنه يرمي إلى إنشاء حكومة وطنية يكون الحكم فيها للمصريين وعبَّر عن ذلك من خلال منشور وزعه في مصر 27يونيو1798م أي قبل وصول الحملة للشواطئ المصرية مباشرة، وقد جاء نص منشوره كما يلي:

" إنني ما قدمت إليكم إلَّا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك إيمانًا، أعبد الله سبحانه وتعالي واحترم نبيه والقرأن العظيم، وإن جميع الناس متساوية عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وأنه اذا كانت الأرض المصرية التزامًا للماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم "

لّعِبّ نابليون على وتر الدين عند المصريين، ولكن كان الشعب المصري قد علم كذبه وحيله.

أما نحن فنرى أن أسباب هذه الحملة على مصر عديدة وأهمها هو التحكم في موقع مصر الاستراتيجي على الطريق بين الشرق والغرب، واستغلال موارد مصر المادية والبشرية، وقطع الطريق بين إنجلترا عدو فرنسا اللدود ومستعمراتها في الهند، كما أرادت

حكومة فرنسا تعويض نفسها عما فقدته من مستعمرات في الهند وكندا بإقامة إمبراطورية فرنسية في الشرق تكون مصر نواتها ومركزها.

وقد تألفت الحملة الفرنسية من ستة وثلاثين ألف جندي تحملهم ثلاثمائة سفينة، وأبحرت الحملة من ميناء طولون الفرنسي سرًا حتى لا يتسرب أمرها إلى الأسطول الإنجليزي الذي يراقب الملاحة في البحر المتوسط، واستولت الحملة في طريقها على جزيرة مالطة، وما إن وصلت جزيرة كريت قام نابليون بإصدار أوامره بالاتجاه نحو مصر.

كانت مصر في هذا الوقت ولاية عثمانية إلَّا أن الحُكم الفعلي كان في يد المماليك، وكان المماليك منقسمين إلى فرق واحزاب متطاحنة، ويمكن أن نقول ان النزاع بين المماليك في هذا الوقت قد انحصر بين مراد بك وإبراهيم بك.

في أوائل يوليو 1798م فوجئ المماليك في القاهرة بخبر وصول الحملة الفرنسية قرب شواطئ الإسكندرية، وقبل أن تصل قوات المماليك من القاهرة بقيادة مراد بك لملاقاة الفرنسيين، كان أهالي الإسكندرية بزعامة السيد محمد كريم حاكم المدينة قد

واجهوا قوات الغزو، إلَّا أن المقاومة لم تصمد طويلًا وتم اعتقال محمد كريم الذي أعدم رميا بالرصاص.

أخذ نابليون طريقه إلى القاهرة، واستطاع هزيمة المماليك في شبراخيت قرب البحيرة، ثم امبابة والتي عرفت بمعركة الأهرام.

بعد هزيمة المماليك في شبراخيت وامبابة، أصبح طريق نابليون مفتوحا إلى القاهرة، ودخلها في يوليو 1798م بعد أن أَمَّنَ العلماء والمشايخ على الأرواح والأموال.

أما المماليك، فقد فر إبراهيم بك ومعه الوالي العثماني إلى الشام بعد مناوشات مع الفرنسيين في الصالحية، أما مراد بك فقد فر إلى الصعيد وتزعم المقاومة هناك ضد الحملة الفرنسية.

لم تستطع الحملة الفرنسية فرض سيطرتها على الصعيد لعدة أسباب، منها: اعتماد أهل الصعيد على حرب المناوشات والمعارك المتفرقة والتي انهكت قوة الفرنسيين، بالإضافة إلى انضمام قوة محدودة جاءت من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر لمناصرة أبناء عمومتهم في الصعيد، كما لعب طول وادي النيل وبعد الصعيد جنوبًا دورًا مهمًا في إفشال السيطرة الفرنسية عليه.

لم يستقر الحال في القاهرة لنابليون طويلًا، حيث تم تدمير

أسطول الحملة الفرنسية وقتل قائده في معركة أبي قير البحرية أمـام الأسطول الإنجليزي في أغسطس 1798م، كما قامت ضد نـابليون ثورة شعبية عـارمة في القاهرة في أكتوبر لنفس العام عرفت بثورة القـاهرة الأولى.

بـالرغم من أن نـابليون استطاع القضـاء على هذه الثورة والقبض على زعمائها وإعدام معظمهم بعد أن اجتاح الجامع الأزهر بخيول جنده، إلَّا أن هذه الثورة زعزعت الاستقرار النسبي الذي كانت تشعر بها الحملة في القاهرة.

وصلت الأخبارالى نابليون أن الدولة العثمانية أعدت حملتين لتخليص مصر من الحملة الفرنسية، الأولى حملة برية قادمة من نـاحية الشام، والثانية حملة بحرية قادمة عن طريق جزيرة رودس في البحر المتوسط.

عزم نـابليون على الخروج بحملة إلى الشام للقضـاء على الحملة العثمانية البرية، ورغم انتصـار نـابليون على العثمانيين في الشام، إلَّا أن حملته على الشام فشلت لعدم استطاعته دخول عكا لقوة أسوارها وبسالة أهلها وحاميتها.

عاد نـابليون إلى القـاهرة وكانت الحملة العثمانية البحرية وصلت

عند أبي قير فهاجمها نابليون وهزمهم في معركة أبي قير البرية.

في تلك الأثناء، بلغت بونابرت المتاعب التي تواجهها حكومة الادارة في فرنسا مع النمسا وحلفائها، فقرر العودة سرا إلى فرنسا تاركا قيادة الحملة في مصر إلى نائبه كليبر أغسطس 1799م.

بعد رحيل نابليون زادت المتاعب التي تواجهها الحملة الفرنسية في مصر، ورأى كليبر استحالة بقاء الحملة في مصر، لذا دخل في مفاوضات مع العثمانيين ليضمن رحيل من بقي من جنوده على نفقة الدولة العثمانية، وبالفعل توصل كليبر إلى عقد اتفاقية مع العثمانيين تنص على ذلك عرفت باتفاقية العريش سنة 1800م.

اعترضت حكومة انجلترا على هذه المعاهدة ورغبت في افشالها، فطلبت استسلام جنود الحملة الفرنسية كأسرى حرب، وهو مارفضه كليبر بالطبع، ففشلت معاهدة العريش كما أرادت انجلترا.

اتجه كليبر إلى فرض مزيد من الضرائب على المصريين لتأمين احتياجات جنوده، فقام الشعب المصري بثورة جديدة ضد الحملة الفرنسية عرفت بثورة القاهرة الثانية، وتزعم هذه الثورة نقيب الأشراف السيد عمر مكرم، وكان مركز هذه الثورة حي بولاق.

بعد اشتباكات ومعارك بين جنود الحملة والثوار في أحياء

القاهرة، استطاع كليبر القضاء على الثورة بالقوة والارهاب، ودمر حي بولاق وغيره من الأحياء بالمدافع، وأعمل القتل في المصريين.

في 14يونيه1800م قتل كليبر على يد شاب سوري كان يدرس في الأزهر هو سليمان الحلبي، وبعد مقتل كليبر تولى مينو قيادة الحملة الفرنسية في مصر باعتباره أكبر ضباط الحملة في مصر.

أشهر مينو إسلامه وتزوج فتاة مصرية من رشيد اسمها زبيدة، وأعلن عن مشروع عظيم سينفذه في مصر إلَّا أن الأمور لم تسير كما يريد، حيث لم تهدأ ثورات المصريين، وعادت مقاومة المماليك، وانضم الجيش العثماني إلى الأسطول الإنجليزي، فلم تستطع القوات الفرنسية المقاومة واستسلمت الحملة الفرنسية أمام القوات الإنجليزية والعثمانية التي دخلت مصر ومعها زعماء المماليك إبراهيم بك ومحمد بك الألفي وعثمان بك البرديسي، وكذلك السيد عمر مكرم بصفته يمثل الزعامة الشعبية وقائدًا للمصريين، وغادرت الحملة الفرنسية مصر في سبتمبر 1801م.

بعد رحيل الحملة الفرنسية، شهدت مصر فترة عصيبة مليئة بالفوضى والاضطرابات حتى تولى محمد علي ولاية مصر في مايو 1805م.

الباب الحادى عشر

مصر فى عصر أسرة محمد على

الفصل الأول

عصر محمد على

بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تنازع على حكمها ثلاث قوى هي الدولة العثمانية و الإنجليز والمماليك، وكانت هذه القوى هي التي كانت قد اتحدت من قبل ضد الحملة الفرنسية، ثم ما لبث كل منها إلى التطلع للانفراد بالحكم.

فقد تطلع السلطان العثماني إلى إعادة حكمه ونفوذه على مصر ولذلك قرر محاربة المماليك والقضاء عليهم، أما انجلترا فأرادت أن تبسط نفوذها على وادي النيل وتحتل بعض المواقع على شواطئ البحرين المتوسط والأحمر، ومن جهة ثالثة طمع المماليك في إستعادة حكمهم للبلاد وحاولوا الاستعانة بالإنجليز ضد الدولة العثمانية، وبطبيعة الحال رحب الإنجليز بذلك لتحقيق أطماعهم في مصر.

مع تطاحن وتنازع هذه القوى الثلاث، ظهرت قوة جديدة على ساحة الحراك السياسي في مصر، وهي قوة الشعب المصري ممثلة في زعاماته التي تبلورت منذ الحملة الفرنسية واتسعت خبراتها بالدخول في تجارب الحكم والسياسة، وبرزت شخصيات مهمة أمثال السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي وغيرهما.

على أي حال واجهت البلاد فترة عصيبة من الفوضى والاضطرابات، وتعدد الولاة في فترة وجيزة، وخلال هذه الفترة ظهرت شخصية محمد علي.

ولد محمد علي سنة 1769م في مدينة قولة باليونان والتي كانت ولاية عثمانية،واسمه كاملًا محمد علي باشا المسعود ابن إبراهيم آغا القوللي نسبةً إلى محل ميلاده، وقد عمل في بداية حياته بتجارة الدخان، واكتسب خبرة في الشئون المالية فضلا عن خبرته العسكرية، وانضم إلى الجيش العثماني الذي جاء مع الأسطول العثماني إلى مصر للاشتراك في إجلاء الفرنسيين وكان قائدًا للفرقة الألبانية.

- **ولاة مصر منذ جلاء الحملة الفرنسية 1801م حتى تولية محمد علي 1805م:**

1. خسرو باشا: بعد جلاء الحملة الفرنسية، عينت الدولة العثمانية محمد خسرو باشا واليًا على مصر، وقد طلب خسرو باشا من طاهر باشا قائد فرقة الأرناؤود ومحمد علي قائد فرقة الألبان التوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك، إلَّا أن محمد علي حرض طاهر باشا بأن يطالب خسرو بدفع رواتب الجند المتأخرة، وكان محمد علي يعلم أن خسرو سيعجز عن توفير رواتب الجند، وهو ماحدث، فثار الجند على خسرو باشا وهاجموا القلعة فهرب خسرو إلى دمياط ثم قبض عليه وسجن في القلعة.
2. طاهر باشا: بعد توليه، عجز هو أيضًا عن دفع رواتب الجند فثاروا عليه وقتلوه.
3. أحمد باشا: لم يلبث في السلطة الَّا يومًا واحدًا، حيث تحالف ضده محمد علي والمماليك، فغادر القاهرة، وطرد المماليك القوات العثمانية من القاهرة وأصبح منصب الوالي خاليًا وأصبحت السلطة الفعلية في يد أحد المماليك وهو عثمان بك البرديسي.

4. علي الجزايرلي باشا: عَيّنَ السلطان علي الجزايرلي واليًا على مصر، ولكن المماليك قتلوه قبل أن يتولى السلطة في يناير 1804م، مما أدى إلى انتهاء مظهر السيادة العثمانية، ولم تعد هناك قوى متنافسة على الحكم سوى محمد علي والمماليك الذين زادت سلطتهم بعد عودة محمد بك الألفي المملوكي من إنجلترا وضمن تأييدهم له. وقد بدأ محمد علي يخاف من المماليك بعد عودة الألفي، إلَّا أن عداء البرديسي للألفي والصراع بين فرق المماليك وفرت على محمد علي الدخول في الصراع معهم وأكتفى باشعال نار العداوة والفتنة بينهم، حيث قرر البرديسي اعتقال الألفي الذي هرب إلى الصعيد.

في ظل هذه الصراعات، وفي فترة حكم البرديسي هذه، تعرضت مصر إلى أزمة اقتصادية طاحنة، إذ انخفض فيضان النيل وقلت الأقوات ففرض البرديسي الضرائب على الناس، مما دفع الشعب إلى الثورة على البرديسي ومماليكه.

يبدو أن محمد علي قد خشي من أن تصيب الثورة جنوده، كما أنه أدرك أن هذه ربما تكون فرصته الأخيرة للتقرب بشخصه من المصريين وزعامتهم، وأن يظهر في دور العادل المتواضع.

على أي حال قامت ثورة الشعب المصري في مارس 1804م، ونزل محمد علي وجنوده إلى الشارع واختلط بالأهالي الساخطين وتعهد للعلماء والمشايخ برفع الضرائب عن الناس وأمر جنوده باحترام الشعب ورفع الظلم عنهم وحمايتهم، وبذلك كسب محمد علي عطف الشعب وثقة زعمائه، وانتهز الفرصة وهاجم مراكز المماليك وحاصر بيوتهم فهربوا إلى الصعيد، فحدث فراغ سياسي للسلطة في القاهرة، فاقترح محمد علي إطلاق سراح خسرو باشا من السجن وتعيينه واليا، فارتفع مركز محمد علي لدى العلماء ولدى السلطان اذ ظهر بمظهر غير الطامع في الولاية، إلَّا أن اعادة خسرو للولاية لاقت اعتراضات كثيرة مما أدى إلى عدم توليته.

5. خورشيد باشا: اقترح محمد علي تعيين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بوصفه عثمانيا، وفعلا تم تعيينه، إلَّا أن خورشيد لم يكن ليطمئن لموقف محمد علي لذلك عمل على التخلص منه بأكثر من طريقة، منها استصدار فرمان (أمر) من السلطان العثماني بتعيين محمد علي واليًا على جدة، لكن محمد علي رفض تنفيذ ذلك مستندًا على تأييد العلماء والزعامة الشعبية.

تذمر الأهـالي من مظالم خورشيد وأعمال جنوده، فـاجتمع العلماء والزعماء والنقباء في بيت القـاضي أو المحكمة في 13مـايو 1805م، وقرروا عزل خورشيد وتولية محمد علي بشروطهم وهي أن يحكم بـالعدل وألَّا يبرم أمرا الَّا بمشورتهم وإذا خـالف ذلك عزلوه.

وكانت هي المرة الأولى في التـاريخ المصري التي يعزل فيها والي ويولى أخر بـإرادة شعبية، ولم يستطع السلطان العثماني أن يواجه هذه الإرادة القوية من المصريين فـاضطر إلى إصدار فرمان بعزل خورشيد وتولية محمد علي في يوليه 1805م.

• محمد علي وتوطيد حكمه في مصر:

قبل أن يشرع محمد علي في بنـاء الدولة الحديثة في مصر، كـان عليه أن يطمئن لاستقرار الحكم في يده خالصا من أعدائه في الخـارج ممثلين في السلطان العثمـاني وفي الإنجليز، ومن منافسيه في الداخل ممثلين في الزعامة الشعبية وخاصةً عمر مكرم، والممـاليك، وكـانت كمـا يلي:

– في أغسطس 1805م حدثت محـاولة انقلاب فـاشلة من الممـاليك تصدت لها قوات محمد علي وطاردتهم إلى الصعيد.

– في 1806م أصدر السلطان العثمـاني فرمـانًا بتوجيه إنجليزي

يقضي بنقل محمد علي إلى ولاية سالونيك وتسليم السلطة لموسى باشا القادم مع الأسطول العثماني، إلَّا أن الزعامة الشعبية ساندت محمد علي بقوة مما اضطر السلطان العثماني إلى التخلي عن فكرة نقل محمد علي مقابل دفع أربعة آلاف كيس من النقود.

- في 1807م وجهت انجلترا حملة عسكرية إلى مصر عرفت بحملة فريزر، وكانت الحملة تهدف إلى احتلال مصر وخلع محمد علي وتنصيب حليفها في مصر محمد بك الألفي، وقد نزلت الحملة إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ووقع عبء المقاومة على المصريين والزعامة الشعبية الذين هزموا الإنجليز في شوارع رشيد وفي الحماد وأسروا بعضهم وقتلوا الكثير منهم وفر الباقون راجعين إلى الإسكندرية، أما محمد علي فكان يحارب المماليك في الصعيد فأسرع بالزحف إلى الإسكندرية وحاصرها، فطلب فريزر الصلح والجلاء مقابل الإفراج عن الأسرى، فوافق محمد علي ودخل الإسكندرية منتصرا، أما الألفي المملوكي تابع الإنجليز فكان قد مات قبل وصول حملة فريزر بشهرين ولم تعلم الحملة بخبر وفاته.

- في 1809م قام محمد علي بخلع السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط وتولية محمد السادات مكانه والذي كان أداة طيعة في يد محمد علي، حيث كان محمد علي قد أدرك قوة الزعامة الشعبية ممثلة في السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، ودورها في توليه الحكم والقيود التي فرضتها عليه، كذلك ارتفاع منزلته في نفوس الشعب وخاصة بعد دوره الواضح في رسم خطط مقاومة حملة فريزر.
- في مارس 1811م قرر محمد علي التخلص تمامًا من المماليك ليخلص له حكم مصر دون منافسة، وقد اتبع معهم سياسات مختلفة إلَّا أن أبشع طريقة كانت ما عرف بمذبحة القلعة 1811.

فعندما طلب السلطان من محمد علي التوجه إلى الحجاز لضرب الحركة الوهابية التي قامت هناك على يد محمد بن عبد الوهاب، خشي محمد علي أن ينتهز المماليك فرصة خروج جيشه وينقلبوا عليه، لذلك دبر لهم هذه المذبحة.

قام محمد علي بدعوة المماليك للاحتفال في القلعة بمناسبة خروج الجيش بقيادة ابنه طوسون إلى الحجاز، ثم حوصرت فرق المماليك من كل جانب وتم قتلهم جميعًا ماعدا عدد قليل منهم

كانوا في الصعيد ففروا إلى السودان وبذلك خلص حكم مصر لمحمد علي دون منازع وبدأ في بناء دولته الحديثة في مصر.

أهم أعمال محمد علي في بناء الدولة الحديثة:

- **الاقتصاد:**

طبق محمد علي سياسة الاحتكار على كل موارد الاقتصاد المصري ليضمن السيطرة على الاقتصاد ومنافسة الدول الأوروبية.

1. **الزراعة:** من أهم ما قام به في مجال الزراعة هو توزيع الأراضي على الفلاحين بمساحات تتراوح مابين ثلاث إلى خمس أفدنة لكل أسرة للانتفاع بها مع دفع الضرائب، وأحل أساليب زراعية جديدة وأدخل محاصيل وغلات جديدة وأصبح القطن المصري القطن الأول عالميًا، كما حسن طرق الري فشق ترعة المحمودية وأقام القناطر وأهمها القناطر الخيرية.
2. **الصناعة:** أقام محمد علي المصانع المختلفة مثل الغزل والنسيج والسكر والأسلحة وغيرها، وكانت هذه المصانع كلها تتبع الحكومة، كما استقدم خبراء من أوروبا، وجمع الصبية الصغار للعمل في مصانع الدولة اجباريًا بأجر رمزي فأصبحت بمثابة مدارس صناعية.

3. **التجارة:** خضعت التجارة لسياسة الاحتكار بعد أن خضعت لها الزراعة والصناعة، وبطبيعة الحال ولخدمة النشاط التجاري اهتم محمد علي بالنقل والمواصلات فقام بتمهيد الطرق البرية والبحرية وبناء أسطولين في البحرين الأحمر والمتوسط وإصلاح الموانئ القديمة وتطهير البحر الأحمر من القرصنة.

- **التعليم والثقافة:**

قام محمد علي بانشاء المدارس العليا مثل الحربية والطب والمهندسخانة، كما أقام المدارس الابتدائية والتجهيزية، وقام بإرسال بعثات علمية إلى أوروبا خاصة إلى فرنسا، كما استعان ببعض الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس العليا والترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية، وأقام كذلك المطابع الأميرية في بولاق لطباعة الكتب، كما أصدر صحيفة الوقائع المصرية.

- **القوة العسكرية:**

كانت جميع مشروعات محمد علي العمرانية والتعليمية بهدف سد حاجات الجيش، فقد أدرك محمد علي أن بناء جيش قوي هو الدعامة الأساسية لتحقيق أهدافه في بناء الدولة الحديثة، فقام

بإنشاء المدارس العسكرية وأهمها مدرسة في أسوان، واستقدم ضباطا من أوروبا للتدريس في هذه المدارس، كما قام محمد علي بتجنيد المصريين، وإقامة الترسانات البحرية وإنشاء الأسطول الحربي، كما اهتم كذلك بالتصنيع الحربي وإقامة القلاع والاستحكامات.

حروب محمد علي وتوسيع دولته:

خاض محمد علي مجموعة من الحروب مكنت مصر من تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية، رغم أن هذه الحروب في بدايتها كانت لحساب السلطان العثماني، وانتهت بمواجهة السلطان نفسه، مما جعل الدول الأوروبية تدرك مدى قوة محمد علي وأنه أصبح يمثل خطرًا على التوازن الدولي، فتحالفت أوروبا مع السلطان العثماني حتى تم إخضاع محمد علي بفرض معاهدة لندن 1840م عليه.

وقد تمثلت أهم الحروب التي خاضها محمد علي في:

- **حروب الجزيرة العربية** 1811م - 1819م:

عرفت كذلك بالحروب الوهابية، وتمت بناء على طلب السلطان العثماني بهدف القضاء على دعوة محمد بن عبد الوهاب من آل سعود، وترتب عليها نجاح محمد علي في إسقاط الدولة السعودية

الأولى وأسند السلطان لمحمد علي مشيخة الحرم المكي ولابنه إبراهيم ولاية جدة، واتسع مجال مصر فشمل الحجاز ونجد وعسير وجزءًا من اليمن والخليج العربي.

• **حرب اليونان 1821م – 1828م:**

عرفت كذلك بحرب المورة، وتمت بناء على طلب السلطان العثماني للقضاء على ثورة اليونانيين ومطالبتهم بالاستقلال عن الدولة العثمانية، ورغم تحطم أسطول محمد علي في معركة نوارين أو نفارين، إلَّا أن النتائج النهائية للحرب كانت في صالح محمد علي لبناء القوة الذاتية لمصر ومنها ضم جزيرة كريت لولاية مصر، وارتفاع مكانة مصر دوليًا حيث تفاوضت الدول الأوروبية مع محمد علي مباشرة للتوصل إلى إتفاقية لإنهاء الحرب عام 1828م.

• **حرب السودان 1820م – 1822م:**

تعتبر أول الحروب التي خاضها محمد علي بناء على رغبته الشخصية وإرادته، وارتبطت بفكرة المجال الحيوي لمصر والامتداد الطبيعي لها من ناحية الجنوب، وهدف من ورائها إلى القضاء على المماليك الفارين من مذبحة القلعة واكتشاف مناجم الذهب والماس وتنمية التجارة وتجنيد السودانيين في الجيش،

وترتب على هذا الفتح تقسيم السودان إلى مديريات على النمط المصري وبناء مدن جديدة مثل الخرطوم وكسلا واكتشاف منابع النيل وأواسط أفريقيا.

• **حروب الشام 1831م – 1839م:**

تطلع محمد علي لضم الشام وحاول نيلها بالسياسة من السلطان أكثر من مرة إلَّا أن محاولاته السياسية كلها لم تنجح وفي 1831م وجد محمد علي الحجة التي سيدخل بها إلى الشام، فقد أعلن رغبته في إرجاع الفلاحين المصريين الهاربين إلى الشام تخلصًا من الضرائب وفرارًا من الخدمة العسكرية، وقد بلغ عددهم نحو ستة ألاف، وقد رفض والي عكا إرجاع هؤلاء الفارين بإعتبار أنهم رعايا عثمانيون يحق لهم الاستقرار في أي مكان يتبع الدولة العثمانية لذلك قرر محمد علي التوسع في الأراضي الشامية.

بالفعل في أكتوبر 1831م تقدمت القوات المصرية في الشام وحققت انتصارات متتالية فدخلت عكا ودمشق وحمص بل وتخطت الحدود الشمالية لسوريا ودخلت الأناضول وتمركزت في أدنة وواصلت الزحف نحو الآستانة عاصمة الدولة العثمانية.

وانتهى هذا الأمر بعقد صلح كوتاهية 1833م وبه بسط محمد علي نفوذه على الشام وأدنة وتأكد سلطانه على كريت ومعظم شبه الجزيرة العربية والحجاز فضلًا عن مصر.

وفي عام 1838م جدد محمد علي عزمه على الاستقلال عن الدولة العثمانية، إلَّا أن انتصارات محمد علي وتهديده للسلطان آثارت مخاوف الدول الأوروبية من ازدياد نفوذه وقوته وخطره على التوازن الدولي، ولم تكن الدول الأوروبية لتسمح بتفوق مصر، فدخلت الدول الأوروبية في مفاوضات مع السلطان العثماني وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة لندن 1840م والتي عرفت باسم تسوية لندن،**وكانت أهم شروط هذه التسوية هي:**

1. اعطاء محمد علي وخلفائه حكم مصر وراثيًا ولمحمد علي فقط حكم فلسطين طوال حياته مع إخلاء كريت وأدنة والحجاز
2. أن يدفع محمد علي جزية سنوية للسلطان
3. أن يلتزم محمد علي بتطبيق كافة المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية
4. تعد قوات محمد علي البرية والبحرية جزءًا من قوات الدولة العثمانية وأن تكون في خدمة السلطان.

أمـام هذا التحـالف الأوروبــي العثمـاني لم يستطع محمد علي المقـاومـة واضطر إلى قبول هـذه التسوية، واستكمـالًا لـهذه المعـاهدة أصدر السلطان فرمـانين في عـام 1841م ربطا مصر بقيود جديدة منـها:

- يتلقى حكام مصر من أبنـاء محمد علي فرمـان الولاية من السلطـان.
- لا يزيد عدد الجيش في وقت السلم على ثمـانية عشر ألف جندي ولا تبنـي مصر سفنًـا حربية إلَّا بـاذن السلطان إلَّا أن الفرمـان الأول قد قضـى بحق وراثة حكم مصر لأكبر أبنـاء محمد علي سنـا من الذكور،وقضـى الثـاني بولاية محمد علي على السودان.

على أي حـال، وبعد انسحـاب الجنود المصرية من بلاد الشـام وفصل الأخيرة عن مصر وعودتـها لربوع الدولـة العثمـانية بدعم أوروبـي كبير، أصيب محمد علي بـاشا بحـالة من جنون الارتيـاب، وغدا مشوش التفكير شيئًـا فشيئًـا، ويُعـاني من صعوبـة في التذكّر، ومن غير المؤكد إن كـان هذا نتيجة جهده الذهـني خلال حرب الشـام، أو حـالة طبيعية نتيجة تقدمه بـالسن.

بعد عـام من هذه الحـادثة،أصيب إبراهيم بـاشا بن محمد علي بـالسل،

واشتد عليه داء المفاصل، وأخذ يبصق دمًا عند السعال، فزاد ذلك من هموم محمد علي وحزنه، فأرسل ولده إلى إيطاليا للعلاج، على الرغم من أنه أدرك في قرارة نفسه أن ولده في عداد الأموات، ويتضح ذلك جليًا مما قاله للسلطان عندما زار الآستانة في سنة 1846م، حيث عبّر عن خوفه من ضياع إنجازاته بسبب عدم كفاءة أحفاده لتحمّل مسؤولية البلاد والعباد، فقال:

" **ولدي عجوزٌ عليل، وعبّاس متراخ كسول، من عساه يحكم مصر الآن سوى الأولاد، وكيف لهؤلاء أن يحفظوها**»

بعد ذلك عاد محمد علي إلى مصر وبقي واليًا عليها حتى اشتدت عليه الشيخوخة، وبحلول عام 1848م كان قد أصيب بالخرف وأصبح توليه عرش الدولة أمرًا مستحيلاً، فعزله أبناؤه وتولّى إبراهيم باشا إدارة الدولة.

حكم إبراهيم باشا مصر طيلة ستة أشهر فقط، قبل أن يتمكن منه المرض وتوافيه المنيّة في نوفمبر سنة 1848م، فخلفه ابن أخيه طوسون، عبّاس حلمي. وبحلول هذا الوقت كان محمد علي باشا يُعاني من المرض أيضًا، وكان قد بلغ من الخرف حدًا لا

يمكنه أن يستوعب خبر وفاة ابنه إبراهيم، فلم يُبلّغ بذلك. عاش محمد علي بضعة شهور بعد وفاة ولده، وتوفي في قصر رأس التين بالإسكندرية بتاريخ 2 أغسطس سنة1849م، فنُقل جثمانه إلى القاهرة حيث دُفن في الجامع الذي كان قد بناه قبل زمن في قلعة القاهرة.

الفصل الثانى

عصر خلفاء محمد على

استمر حكم أسرة محمد علي باشا لمصر في الفترة ما بين 1805م الى 1953م وتمدد حكمهم أيضًا نحو السودان لمدة طويلة خلال هذه الفترة، بالإضافة إلى الشام والحجاز خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

سنتناولهم بترتيبهم مع الإشارة إلى أهم الحوادث في عصر كل منهم:

1- إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (يوليو: نوفمبر 1848م):

هو الابن الأكبر لمحمد علي باشا، وقد نصب كقائم على العرش نيابة عن أبيه في عام 1848م بعد اشتداد المرض على محمد علي كما أسلفنا، وكان قائدًا للجيوش المصرية في حياة أبيه، وهو صاحب الانتصارات في الجزيرة العربية والشام، وكان قائدًا في حروب اليونان أيضا، فيبدو أنه كان الساعد الأيمن لوالده.

حصل إبراهيم باشا على فرمان التولية من السلطان العثماني في مارس 1848م، ولم يشهد عصره حوادث عظيمة كما كان عصر أبيه، حتى أنه قد تُوفي قبل وفاة محمد علي نفسه، حيث تُوفي في نوفمبر 1848م بينما توفي محمد علي في أغسطس 1849م.

2- عباس حلمي الأول بن طوسون بن محمد علي باشا (نوفمبر 1848م – يوليو 1854م):

هو عباس حلمي بن أحمد طوسون بن محمد علي باشا، وهو من مواليد مدينة جدة، ثم انتقل إلى القاهرة، وقد بذل جده محمد علي جهدا كبيرًا في تعويده على أمور الدولة، إذ كان هو أكبر أبناء أسرة محمد علي من الذكور بعد عمه إبراهيم باشا، مما يعني أنه قد يتولى شئون الحكم بموجب الفرمان الذي كان محمد علي قد حصل عليه من السلطان العثماني في عام 1841م.

لم تشهد البلاد في عهده أي تطور بل تراجعت مشروعات وإنجازات محمد علي في كل المجالات بشكل كبير، فأغلق الكثير من المدارس التي أقامها محمد علي، وخفض عدد الجيش وتسليحه، إلَّا أنه شرع في إقامة خط سكة حديد بين القاهرة والإسكندرية.

على أي حال توفي في يوليو 1854م في قصره بمدينة بنها، ويبدو أن وفاته كانت اغتيالًا.

3- محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا (يوليو1854م- يناير 1863م):

محمد سعيد باشا هو الابن الرابع لمحمد علي باشا، وقد تولى ولاية مصر بعد ابن أخيه عباس حلمي الأول، إذ كان أصغر سنا منه، وتلقى محمد سعيد تعليمه في باريس، ويبدو أن ذلك كان له تأثيرًا عظيما على نزعته الغربية التي طغت عليه وعلى أعماله.

شهد عصره العديد من الأعمال، قد يصحبك العديد من التساؤلات حينما تقرأها، لما قام بها ؟ وما منها كان في مصلحة البلاد ؟

ومن أهم هذه الأعمال وأشهرها، تأسيس البنك المصري في عام 1854م، ومنح امتياز حفر قناة السويس واستغلالها لشركة فرنسية كانت بإدارة صديق دراسته الفرنسي فرديناند دليسبس، وقد منحه هذا الامتياز من خلال عقدين شروطهما أهدرت حقوق مصر حكومة وشعبا من خلالهما، ويكفي أن هذا الامتياز قد منح للشركة حق استغلال القناة بالكامل لصالح الشركة الفرنسية لمدة 99عامًا تبدأ من تاريخ افتتاح القناة للملاحة.

كما بدأ سعيد باشا في الاستدانة من الخارج مما عرض البلاد لأزمة مالية شديدة نالت من البلاد في عصره وألقت بآثارها على من خلفه وأدت إلى التدخل الأجنبي في شئون البلاد والذي سينتهي بالإحتلال البريطاني.

استكمل كذلك سعيد باشا الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية والذي كان عباس الأول قد شرع في إقامته، وأقام خطًا حديديًا جديدًا بين القاهرة والسويس.

تُوفي محمد سعيد باشا في يناير 1863م، وخلفه إسماعيل ابن أخيه إبراهيم باشا.

4- الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (يناير1863م- يونيه 1879م):

هو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا. ولد في 1830م في قصر المسافر خانه بالجمالية، وهو الابن الأوسط بين ثلاثة أبناء لإبراهيم باشا غير أشقاء وهم الأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل، اهتم والده إبراهيم باشا بتعليمه، فتعلم مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية، وقد كان تعليمه بين فيينا النمساوية، وباريس الفرنسية.

كان الأمير إسماعيل يكره ابن عمه عباس حلمي الأول فلما تولى الحكم شعر إسماعيل واخوته بكراهية عباس لهم، ثم مات جده محمد على، واشتد الخلاف بين إسماعيل وبقية الأمراء بشأن تقسيم ميراث جده، وسافر إسماعيل وبعض الأمراء إلى الآستانه، وعينه السلطان عبد المجيد الأول عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية،

وأنعم عليه بالبشاوية، ولم يعد إلى مصر إلَّا بعد مقتل ابن عمه عباس وتولى بعده عمه محمد سعيد ولاية مصر.

عندما عاد إسماعيل من الآستانه لقى من عمه سعيد عطفاً كبيراً، وعهد إليه برئاسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئة قضائية فى البلاد في ذلك الوقت.

بعد وفاة محمد سعيد باشا، حصل إسماعيل على ولاية مصر، حيث كان أخيه الأكبر قد تُوفي، ومنذ يومه الأول في الولاية، فقد عمل إسماعيل على التخلص من القيود التي فرضتها معاهدة لندن على مصر، ونجح في تحقيق انجازات حقيقية ملموسة أهما أن البلاد شهدت في عصره نهضة عمرانية حقيقية فهو من أقام قصر القبة وقصر عابدين، وسراي الرمل في الإسكندرية، كما تم بناء المتحف المصري في عصره، ودار الأوبرا وكوبري قصر النيل الشهير.

أقيمت في عهده كذلك مصلحة البريد المصرية، ومدت خطوط التلغراف في مصر كلها وأضيئت الشوارع بالمصابيح، ووصلت أنابيب المياه إلى المنازل.

كما شهد عصر إسماعيل بداية الحياة النيابية الحقيقية في تاريخ

مصر الحديث، حيث تم انتخاب مجلس شورى النواب عام 1866م والذي يعتبر أول مجلس نيابي منتخب في تاريخ مصر الحديث.

استكمل إسماعيل كذلك توسعات جده محمد علي في أفريقيا حتى وصل إلى دائرة الاستواء وأقام هناك مديرية مصرية عرفت بمديرية خط الاستواء، كما خاض حروبًا عظيمة في الحبشة، تآمرت فيها الدول الأوروبية ضده خوفًا من ازدياد نفوذه.

افتتحت في عهده قناة السويس للملاحة، وأقام لها احتفالات وأنفق عليها ببذخ شديد وأرسل الدعوات إلى الملوك والملكات والأمراء والأميرات والحكام في أوروبا لحضور هذه الاحتفالات.

اهتم كذلك إسماعيل بالتعليم والثقافة، فعادت البعثات العلمية في عهده من جديد بعدما كانت قد انقطعت بعد عصر محمد علي، وهو من أقام أول مدرسة لتعليم البنات في مصر وهي المدرسة السنية بحي السيدة زينب، كما أقام دار الكتب ودار الرصد والجمعية الجغرافية، ومصلحة الإحصاء والمساحة.

استطاع إسماعيل الحصول على فرمانات عثمانية جديدة صبت كلها في مصلحته ودعمت استقلاله بمصر، حيث أعطته هذه الفرمانات الحق في ضرب النقود، وعقد المعاهدات دون الرجوع

للسطان العثماني، وزيادة عدد الجيش المصري، وجعل حكم مصر من بعده في أكبر أبنائه هو فقط لا أبناء أسرة محمد علي كلها.

حصل كذلك على لقب الخديو له ولخلفائه، وهو لقب يعني الملك ويفوق لقب الباشا أو الوالي الذي كان يمنحه السلطان لمن يحكم مصر، ويبدو أنه قد أنفق الكثير من الأموال والهدايا من أجل الحصول على كل هذه المميزات.

ورغم أن عصر إسماعيل كان عصر نهضة حقيقية جعلنا نعتبره المؤسس الثاني لحكم الأسرة العلوية في مصر بعد جده محمد علي، إلّا أن عصره كذلك لم يكن خاليا من المساويء، فقد تفحلت الأزمة المالية في عهده، وازداد التدخل الأجنبي والذي عبرت عنه المراقبة الثنائية الإنجليزية الفرنسية على المالية المصرية، ووصل الأمر إلى حد تعيين وزراء أجانب في الحكومة المصرية وعرفت بالوزارة المختلطة لوجود وزراء أجانب بها.

على أي حال فقد أدت النزعة الإستقلالية للخديو إسماعيل في حكم مصر إلى قلق السلطان العثماني، بالإضافة إلى الأطماع الإستعمارية لكل من إنجلترا وفرنسا لمصر وتحت ضغط كل من قنصلي إنجلترا وفرنسا على السلطان العثماني عبد الحميد

الثاني أصدر فرماناً بعزل الخديو إسماعيل في 26 يونيو 1879م، وإسناد منصب خديوية مصر إلى الأمير توفيق بن الخديو إسماعيل.

بعد عزل الخديو إسماعيل، سافر إلى نابولي في ايطاليا، ومنها إلى الآستانة في تركيا حيث قضى ما تبقى من عمره بها حتى توفي في مارس 1895م.

5- **الخديو توفيق بن الخديو إسماعيل (يونيه 1879م- يناير 1892م):**

هو محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، وهو الابن الأكبر للخديو إسماعيل

استلم الحكم في يونيه 1879، بعد أن أجبر الإنجليز والفرنسيون أباه الخديو إسماعيل على ترك منصبه تنفيذا للفرمان العثماني، وذلك عندما حاول استدراك ما فاته،والتصدي للنفوذ الأجنبي.

أما توفيق فقد قامت في عصره الثورة العرابية، واستطاع الاحتلال البريطاني الاستيلاء على مصر، ويبدو أن توفيق قد رحب بذلك، والشواهد كثيرة على إتفاق توفيق مع الإنجليز لاخماد الثورة العرابية وإفشالها، بل والاتحاد مع الإنجليز ضد الجيش المصري في كفر الدوار والتل الكبير، مما أدى إلى فشل الثورة العرابية وتمكن الإنجليز من احتلال مصر.

بيع في عهده حصة مصر في أرباح قناة السويس وهي 15% من صافي أرباح القناة، وكانت مرهونة لبعض الماليين الفرنسيين منذ عهد إسماعيل، وبذلك فقدت مصر ما تبقى لها من الفائدة المادية للقناة.

على أي حال حاول الخديو توفيق استرضاء الأوروبيين وفرض العديد من القيود المالية التي طالب بها دائنو مصر، وذلك بموجب قانون التصفية الصادر عام 1880م، الذي خصص أكثر من نصف إيرادات مصر لصالح الدين العام، وبذلك تمكن الأجانب من السيطرة على الاقتصاد المصري.

توفي الخديو توفيق في قصر حلوان في يناير 1892م، وأهم ما تركه للبلاد كان الاحتلال البريطاني.

6- الخديو عباس حلمي الثاني بن الخديو توفيق (يناير1892م – ديسمبر 1914م):

عباس حلمي الثاني بن محمد توفيق بن إسماعيل وهو سابع من حكم مصر من أسرة محمد علي، وقد حاول عباس حلمي الثاني أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلى المصريين ويقاوم الإحتلال البريطاني، فانتهز الإنجليز فرصة بوادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان وقتها عباس حلمي الثاني خارج مصر وتحديدًا في

تركيا، فخلعوه من الحكم وطلبوا منه عدم العودة ونصبوا عمه حسين كامل سلطانًا على مصر وفرضوا على مصر الحماية رسميًا، وبذلك انقطعت العلاقة بين مصر والدولة العثمانية تماما.

ومن أبرز شخصيات الحركة الوطنية في عصره، الزعيم مصطفى كامل والزعيم محمد فريد، كما حصل سعد زغلول باشا في عهده على العديد من المناصب التنفيذية والتشريعية.

توفي عباس حلمي الثاني في منفاه بسويسرا عام 1944م في فترة حكم الملك الفاروق الأول، ودفن جثمانه في القاهرة.

7- السلطان حسين كامل بن الخديو إسماعيل (ديسمبر 1914م-أكتوبر 1917م):

هو حسين كامل ابن الخديو إسماعيل، نصب سلطانًا على مصر بعدما عزل الإنجليز ابن أخيه الخديو عباس حلمي الثاني وأعلنوا مصر تحت الحماية البريطانية في عام 1914م وذلك مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكانت تلك الخطوة قد أنهت السيادة الاسمية للعثمانيين على مصر.

ولم يكن له عمل مهم، فقد كان القرار التشريعي والتنفيذي في عصره في يد سلطات الاحتلال البريطاني بعد فرض الحماية البريطانية على مصر.

8- الملك أحمد فؤاد الأول بن الخديو إسماعيل (أكتوبر 1917م- ابريل 1936م):

هوأحمد فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، بعد عزل والده الخديو إسماعيل سنة 1879م صحبه معه إلى المنفى في إيطاليا ثم انتقل بعد ذلك مع والده إلى الآستانة.

عُيِّنَ ياورًا فخريًا للسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، ثم أنتدب بعد ذلك ليكون ملحقًا حربيًا لسفارة الدولة العليا في العاصمة النمساوية فيينا ثم عاد إلى مصر سنة 1890م، وتولى منصب كبير الياوران في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، وتدرج في المنصب حتى أصبح ياورًا للخديو واستمر في هذا المنصب ثلاث سنوات متتالية، وعند وفاة السلطان حسين كامل رفض ابنه الأمير كمال الدين حسين أن يخلفه، فاعتلى عرش مصر بدلًا منه.

وفي عهده قامت ثورة 1919م واضطر الإنجليز إلى رفع حمايتهم عن مصر والاعتراف بها مملكة مستقلة ذات سيادة، فأعلن الاستقلال في1922م بعد صدور تصريح 28فبراير من قبل بريطانيا، والذي أنهى الحماية البريطانية على مصر واعترف بها دولة مستقلة ذات سيادة، واستبدل لقب السلطان بلقب ملك مصر.

وفي عهده صدر دستور 1923م، وأجريت الانتخابات البرلمانية

والتي أدت إلى تشكيل أول حكومة برلمانية في مصر وكانت برئاسة سعد زغلول.

و تُوفي في أبريل 1936م بقصر القبة، ودُفن في مسجد الرفاعي.

9- الملك فاروق الأول بن الملك أحمد فؤاد الأول (ابريل1936م – يوليو1952م):

هو فاروق بن فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ونصب ملكًا على البلاد خلفًا لوالده الملك فؤاد الأول، وذلك وفقًا لنظام توارث عرش المملكة المصرية فى بيت محمد على الذى وضعه الملك فؤاد بنفسه بالتفاهم مع الإنجليز.

وكان لقبة حين تولى العرش ملك مصر وصاحب السودان وكردفان ودارفور وليس ملك مصر والسودان، إلَّا أنه ما لبث أن حمل لقب ملك مصر والسودان رغما عن أنف بريطانيا ورغم اعتراضها على ذلك ومحاولة منعه.

ومن أهم حوادث عصره ما عرف بحادث4 فبراير 1942م، حيث قامت القوات البريطانية بمحاصرته بقصر عابدين، وأجبره السفير البريطاني في القاهرة السير مايلز لامبسون على التوقيع على قرار باستدعاء زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس لتشكيل الحكومة بمفرده أو أن يتنازل عن العرش.

فقد كان الملك فاروق يرفض إعلان الحرب على ألمانيا، وكانت الحرب العالمية الثانية في شدتها، وتحت هذا الضغط البريطاني وتهديده بالعزل، اضطر إلى الاستجابة لأوامر بريطانيا واستدعى مصطفى باشا النحاس لتشكيل الحكومة.

كما شهد عصر الملك فاروق، إعلان اليهود قيام دولتهم على أرض فلسطين في مايو 1948م، وما ترتب على ذلك من دخول مصرو الدول العربية حرب فلسطين والتي انتهت بهزيمة العرب.

وشهد عصره معركة مشهورة بين رجال الشرطة المصرية وقوات الاحتلال البريطاني في مبنى محافظة الإسماعيلية، وكانت في 25يناير 1952م.

استمر حكم فاروق مدة ستة عشر سنة إلى أن أرغمته حركة الجيش في 23 يوليو 1952م على التنازل عن العرش لإبنه الطفل أحمد فؤاد الثاني والذي كان عمره حينها ستة أشهر وفى يوم 26 يوليو 1952م غادر الملك فاروق مصر على ظهر اليخت الملكي المحروسة، وكان في وداعه اللواء محمد نجيب وأعضاء حركة الضباط الأحرار والذين كانوا قد قرروا الاكتفاء بعزله ونفيه من مصر بينما أراد بعضهم محاكمته و إعدامه كما فعلت ثورات أخرى مع ملوكها.

طالب بأن يحافظ على كرامته في وثيقة التنازل عن العرش، فطمأنه علي ماهر باشا وذكر له أنها ستكون على مثال الوثيقة التي تنازل بها ملك بلجيكا عن عرشه، وإتصل علي ماهر باشابالدكتور عبد الرازق السنهوري طالبًا منه تحرير وثيقة التنازل. فأعدت الوثيقة وعرضت على محمد نجيب فوافق عليها.

توفي في ليلة 18 مارس 1965م، في الساعة الواحدة والنصف صباحًا، بعد تناوله لعشاء دسم في مطعم شهير بروما و كانت وصية الملك فاروق أن يُدفن في مصر وتحديدًا في مسجد الرفاعي إلّا أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد رفض الإستجابة لطلب الأسرة بتنفيذ وصية الملك الراحل فتم الإعداد لدفنه في روما و بعد الحاح شديد استجاب جمال عبد الناصر لوساطة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ووافق على أن يتم دفنه في مصر لكنه اشترط ألّا يدفن في مدافن مسجد الرفاعي.

وصل جثمان الملك فاروق إلى مصر ودفن في تكتم شديد في حوش الباشا حيث مقبرة جده إبراهيم بن محمد علي باشا في منطقة الإمام الشافعي.

وفي سبعينيات القرن الماضي وافق الرئيس الراحل محمد أنور

السادات على طلب الأسرة وسمح بنقل رفات الملك فاروق إلى مسجد الرفاعي ودفن بجانب أبيه الملك فؤاد وجده الخديو إسماعيل.

10- الملك أحمد فؤاد الثاني بن الملك فاروق الأول (يوليو1952م – يونيه 1953م):

هو ابن الملك فاروق من زوجته الثانية الملكة ناريمان، وتحقق بمولده أمنية والده بإنجاب ولد ذكر كي يرث العرش، وبعد ميلاده دوت في ليل القاهرة طلقات المدفعية إعلانًا عن مولد أول طفل ذكر للملك فاروق قبل موعد ولادته الطبيعية بشهر واحد، وأعلنه وليًا للعهد، وهذا ما جعل من الأمير محمد علي باشا توفيق يبكي بعد أن سمع طلقات المدفع وعرف إن عرش مصر ذهب بعيدًا عنه بعد أن كان وليًا للعهد منذ تولي فاروق الحكم. كما أن الأمير محمد عبد المنعم شعر بذات المشاعر خصوصًا إنه كان يعتبر الثالث بترتيب العرش بسبب السن حيث كان حينها بالثانية والخمسين من العمر، بينما كان محمد علي باشا توفيق بعمر الخامسة والسبعين.

تنازل له والده الملك فاروق عن العرش تحت ضغط الضباط الأحرار قادة ثورة 23يوليو 1952م ، وغادر بصحبة والده مصر إلى إيطاليا على متن يخت المحروسة. وشكلت لجنة الوصاية

على العرش المكونة من الأمير محمد عبد المنعم وبهي الدين باشا بركات والقائم مقام رشاد مهنا وذلك إلى تاريخ إعلان الجمهورية في 18 يونيه 1953م.

تم بحمد الله وفضله

المحتوى